اقرأ

مصطفى الشهابي

الجغرافيون العرب

دار المعارف بمصر

الجغرافيون العرب

مصطفى الشهابى

الجغرافيون العرب

اقرأ ٢٣٠
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٣٠ – فبراير سنة ١٩٦٢

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

مقدمة

لعب العرب دوراً أساسياً فى تقدم العلوم الحديثة ، برغم تعدد أنواعها . ذلك أنهم ترجموا واقتبسوا أهم ما عثروا عليه من تراث الفراعنة واليونان والهنود ، مما مكن الأجيال التالية من أن تقف على تطورات العلوم فى العصور المتعاقبة — برغم ضياع بعض المؤلفات القديمة — وتعرف محتويات تلك المؤلفات .

ولما تمت للعرب دراسة تراث الأمم التى سبقتهم واستوعبوه جيداً بدأوا فى بناء نهضة عربية مجيدة ، فأضافوا إلى الآراء والمعلومات القديمة ما رأوه من تحسينات أو نظريات خاصة ، وابتكروا أجهزة جديدة ساعدتهم على القيام ببحوث أدت إلى نتائج أكثر دقة ممن سبقوهم ، وهكذا قدموا للأجيال التالية قواعد وأسساً سليمة شيدوا عليها النهضات العلمية التى كان لها الفضل فيما نراه اليوم من رقى وحضارة .

وقد شهدت الفترة التى بين النصف الثانى من القرن الثامن وأول القرن الثانى عشر للميلاد عصراً كان العرب فيه سادة العالم فى مختلف العلوم والفنون ، لدرجة أن ثقافتهم وعلومهم طغت على سائر الثقافات المعاصرة لتلك الفترة . وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت اللغة العربية يومئذ اللغة الدولية للعلوم .

ولكن بعض مؤرخى تاريخ العلوم وتطورها — وجلهم من

الأجانب ـ أغفلوا نصيب العرب أو مروا به مر الكرام ، وسلطوا الأضواء على ما كتبه اليونان ، ونسبوا بعض النظريات إلى علماء أجانب جاءوا فيما بعد القرن الثانى عشر بينما علماء العرب سبقوا هؤلاء إلى تلك النظريات .

وقد يكون السبب فى ذلك عدم إلمام هؤلاء المؤرخين باللغة العربية إلماماً كافياً يمكنهم من دراسة المخطوطات العربية .

كما أن كثيراً من المخطوطات العربية لم يبدأ الاهتمام به إلا أخيراً ، بعد ظهور كثير من الكتب الأجنبية فى تاريخ العلوم .

وقل من تعرض من الأجانب للاعتراف بفضل العرب ، بسبب التعصب الأعمى ضد العرب .

ومن النواحى الهامة التى برز فيها العرب ، علم الجغرافيا وهو موضوع هذا الكتاب ، الذى صدر بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافى العربى الأول بمدينة القاهرة .

تمهيد

منذ ظهر الإنسان على وجه الأرض أغرم بحب الاكتشاف ، ولكنه وجد فى بداية الأمر صعوبات شديدة اضطرته إلى النضال نضالا شديداً ضد قوى الطبيعة وضد الحيوانات المفترسة ، ولذلك مضت عدة قرون وقف فيها الإنسان عن الانتقال لمسافات طويلة ، فلما تيسرت له السبل أخذ يضرب فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويركب متون البحار ويتجشم أعظم المشاق ويصبر على ما يصادفه من مكاره لكى يكتشف بلاداً جديدة أو يختط طريقاً لم تطأه قدم إنسان من قبل .

ولقد كانت المحاولات الأولى لوصف الأرض أو وصف جزء منها غير مبنية على مشاهدة لأحد المعاصرين ، بل كانت معلومات استقاها الرواة ممن سبقهم ، ولكنها كانت بداية الجغرافيا على أية حال .

وكلمة « جغرافية » معربة عن اليونانية ، وهى فى الأصل اليونانى تتكون من (جيو) أى الأرض و (جرافى) أى الرسم والتصوير ، ومعنى الكلمتين معاً « وصف الأرض » .

علاقة الجغرافيا ببعض العلوم :

الجغرافيا من أقدم العلوم وقد كانت للجغرافيين منزلة

مرموقة منذ أقدم العصور ، ويرى « سترابون »[1] أن الجغرافيين أوفر الناس حكمة وأنهم كلهم فلاسفة ، وذلك للعلاقة الوثيقة بين الجغرافيا وأغلب العلوم الأخرى ، فهي شديدة الاتصال بالرياضيات وعلى الأخص في النواحي الفلكية ، وبعلمي الطبيعة والكيمياء ، فالجغرافي يستعين ببعض نظرياتهما وببعض الأجهزة المستعملة في دراستهما لقياس الحرارة والرطوبة والارتفاع والكثافة وغيرها من الظواهر الطبيعية والكيماوية .

وهي تتصل كذلك بعلمي الجيولوجيا والحياة ، لحاجة الجغرافي إلى الإلمام بتركيب سطح الأرض أو غلافها اليابس ، وما يعتريه من التغيرات وأثر ذلك فيما يوجد على سطح الأرض من حيوان ونبات وكذا توزيع النبات والحيوان في جميع أجزائها .

وهناك علاقة بين الجغرافيا وبين دراسة البحار والمحيطات وتوزيعها والمد والجزر والتيارات البحرية .

وتتناول الجغرافيا كذلك دراسة الغلاف الجوي وأثره في الأحياء ، وهو ما يسمى بعلم الظواهر الجوية .

ويحتاج الجغرافي كذلك إلى مهارة ودقة فنية حتى يتمكن من رسم الخرائط والظواهر الطبيعية والنباتات والحيوانات وغيرها .

وللعوامل الجغرافية أثر كبير في مجرى التاريخ .

من ذلك تظهر علاقة الجغرافيا بكثير من العلوم والفنون .

(١) مؤرخ وعالم جغرافي يوناني ، ولد حوالي سنة ٦٣ ق . م .

التأليف الجغرافى عند القدماء

قدماء المصريين والجغرافيا :

كان المصريون أول أمة عنيت بالجغرافيا ، وإن لم يظهر ذلك بشكل واضح . فالمتصفح للأدب المصرى القديم يجده مليئاً بقصص أسطورية أو حقيقية أغلبها يدور حول رحلات قام بها أبطال تلك القصص إلى سورية ، وهى تعطى وصفاً لتلك البلاد يستدل منه أحياناً على مواقع بعض المدن والأنهار كما توضح طرق المواصلات ، وتدل على العلاقة الوثيقة بين مصر وسوريا منذ القدم .

فأسطورة إيزيس وأوزوريس تروى كيف قتل ست أخاه أوزوريس بوضعه فى صندوق محكم وإلقائه فى نهر النيل ووصول ذلك الصندوق إلى ببلوس (جبيل) فى فينيقية ، ثم بحث إيزيس عن جثمان زوجها واهتدائها إليه أخيراً .

وغير هذه الأسطورة ، أساطير الأمير المسحور وغيرها ، ومن القصص قصة سنوحى الذى هرب من مصر والتجأ إلى جنوب سورية حيث أقام عدة سنوات محبوباً من ملكها وأهلها ، فلما كبرت سنه شعر بالحنين إلى مصر فبعث يستأذن ملكها فى العودة فأذن له وأحسن استقباله .

وتوجد — عدا هذه القصة — قصص عدة ، منها قصة الأخوين ومغامرات ويناموت .

الجغرافيا عند اليونان والرومان :

لم يتعرض اليونان فى بادئ الأمر للتأليف فى الجغرافيا برغم ما تركوه من آثار علمية جليلة ، وذلك لضيق مساحة بلادهم وصراعهم الدائم مع الفرس .

غير أن بعض المؤلفين القدماء تناول فيما كتبه نواحى جغرافية ، فهذا هومر — الذى عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد — يسرد فى الإلياذة والأوديسية حوادث ووقائع حربية قام بها اليونان فى القرون السحيقة ضد سكان طروادة التى كانت تقع فى الجزء الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ، ويصف طبيعة البلاد التى مر بها اليونان وأحوال سكانها ونظم الحياة فيها .

واقتصر أغلب ما كتبه المؤلفون اليونانيون الذين جاءوا بعد هومر على وصف البلاد اليونانية الكبرى مثل أثينا ، أما من تعرضوا للأرض فقد وصفوها وصفاً مغرقاً فى الخيال ، وقالوا عن بلاد الشرق إنها مهد الثروة الطائلة ، والشمال إنه مقر السعداء ، والجنوب أنه مسكن الأحباش المسالمين ، أما الغرب فقد أسرفوا فى خيالهم إزاءه إذ زعموا أن به الجزائر الطافية وجزائر السعادة وجزائر المباركين ومركز جميع مجارى المحيطات ، وذهبوا إلى أنه قامت فيه أمة غنية قوية وأن به حقول اليزيا حيث

يقيم الأبطال الذين أسبغوا عليهم صفة الخلود أمثال هرقل ، وقد وصفها هومر وهزيود ويندر — شعراء الإغريق المشهورون — وكانت منشأ خرافة الأتلنتس .

وبرغم ما شاب كل ذلك من خرافات وأساطير فهى دليل على بداية الاهتمام بالمظاهر الجغرافية .

وفى القرن الخامس قبل الميلاد ظهر هيرودوت الذى طاف بأغلب بلاد الشرق الأدنى — ومنها مصر والشام — وتحدث عنها فى كتابه ، غير أن أغلب ما كتبه يتصل بالنواحى التاريخية ، ولذلك اشتهر باسم « أبو التاريخ » . ولكن كتابه لا يخلو من موضوعات جغرافية هامة ، إذ أنه يتناول وصف البلاد التى مر بها وأنهارها — كالنيل فى مصر — ويتحدث عن السكان وعاداتهم وعن الحيوانات والنباتات .

وأول جغرافى يونانى قديم هو ديسباركس ، الذى كان تلميذاً لأرسطاطاليس وظهر فى القرن الثالث قبل الميلاد وألف كتاباً أسماه باليونانية « باريودوس تيس جيس » ومعناها بالعربية الطواف حول الأرض ، ولابد أنه اشتمل على شىء من الجغرافيا ولكنه مفقود .

ولما شرع اليونان فى إنشاء مستعمرات اتسعت معلوماتهم الجغرافية ، وقد تجلى نبوغهم الجغرافى عندما قامت دولة البطالمة فى مصر إذ ظهر فيها عدد كبير من أعلام الجغرافيا مثل أراتوستنيس Eratosthenes وبطليموس وغيرهما .

أما الرومان فلم يهتموا فى بدء تكوين دولتهم بالعلوم وإنما اهتموا بالحرب ، ولما استولوا على بلاد اليونان بهرتهم علومهم فاقتبسوا منها الشيء الكثير ، ولكنهم لم يعنوا بالجغرافيا العناية الواجبة إلا عندما اتسعت أملاكهم وأصبح البحر المتوسط بحيرة رومانية ، يومئذ كتبوا يصفون البلاد النائية عن إيطاليا ويلخصون ما كان معروفاً عن سطح الأرض لدى غيرهم من الأمم.

والمؤلفون القدماء فى الجغرافيا — سواء من اليونان أو الرومان أو العرب — ينقسمون إلى قسمين :

١ — مؤلفون اهتموا بالكرة الأرضية واستطاعوا أن يهتدوا إلى كرويتها وإلى قياس أبعادها ورسم خطوط طول وعرض لها ، كما قسموها إلى أقاليم حسب دوائر العرض وقرروا عدة نظريات خاصة بالأرض ومكانها بين الأجرام السماوية ورسم بعضهم خرائط لإيضاح ما قام بدراسته .

٢ — مؤلفون تناولوا الأقطار المختلفة بالوصف بناء على ما شاهدوه بأنفسهم أو سمعوه من غيرهم ، أمثال هيرودوت واسترابون وديودور الصقلى وعدد كبير من المؤلفين العرب الذين سنتناولهم فى فصل تال .

وقد أصاب بعض هؤلاء شيئاً كثيراً من النجاح برغم جهلهم بجزء عظيم من سطح الأرض .

واشهر كتاب الجغرافيا القدماء هو بطليموس المشهور باسم « الجغرافى » والذى عاش فى الإسكندرية فى القرن الثانى

بعد الميلاد ، إذ استطاع أن ينظم المعلومات الجغرافية وينسقها حتى أصبح كتابه أهم مرجع لدى الجغرافيين الذين جاءوا بعده .

وليست لدينا ترجمة عربية كاملة لكتاب بطليموس ، ولا ريب أنها ظلت موجودة مدة طويلة فلما ظهر الإسلام وقويت شوكة العرب وترجمت كتب اليونان الجغرافية وغيرها إلى العربية كان علم الجغرافيا من العلوم التى عنى العرب بدراستها .

وقد بنى الجغرافيون العرب على ما كتبه بطليموس وأضافوا إلى ما كتبه هو وغيره ، ما وقفوا عليه أثناء أسفارهم ورحلاتهم المتعددة فى مختلف الجهات ، ونبغ منهم عدد كبير سنتحدث عنه فى فصل تال .

ورسم العرب الخرائط الجغرافية فى صدر الدولة العباسية ، وكانوا يجعلون أساس رسومهم قياس العرض والطول . وأول من رسم منهم خريطة الأرض على هذا الإساس محمد بن موسى المعروف بالخوارزمى فى زمن المأمون . على أنهم لما أخذوا فى الارتحال أغضوا عن تلك المقاييس وصاروا يرسمون الخرائط بلا قياس ، فيكتفون بتعيين مواقع البلاد بالنظر إلى الجهات الأربع بلا تقدير للأبعاد بينها .

ولم تكن عندهم قاعدة لتعيين الجهات المذكورة فى الخريطة كما يفعلون اليوم (فإن الخرائط عندنا مقيدة فى تعيين جهاتها أن يكون أعلاها شمالا وأسفلها جنوباً ويمينها شرقاً وشمالها غرباً) ، فالغالب عندهم أن يجعلوا الجهات فى زوايا

الخارطة . على أنهم أخذوا بعد ذلك فى تعيين الأبعاد بعد الأماكن ، وأقدم من عينها منهم الشريف الإدريسى .

وكانت الدراسات الجغرافية القديمة تكاد تكون متشابهة حتى العصور الحديثة ، وذلك لأن الأقطار التى كانت معروفة هى ما يحيط بالبحر المتوسط أما الجهات البعيدة كالهند والصين فلم تصلنا عنها إلا معلومات ناقصة ومشوهة وغريبة ، كما أن هناك قارات ومحيطات كانت مجهولة تماماً .

ولا شك أن عدم توفر وسائل الانتقال واختلال الأمن والخلاف بين الدول والشك فى الأجانب ومشاكل الغذاء عبر الصحراء والمحيطات — كل ذلك له أثره فى تضييق المجال أمام الرحالة القدماء ورحالة العصور الوسطى .

وقد اعتاد المؤلفون الجغرافيون فى العصور الوسطى الاهتمام بوصف ما يشاهدونه من عجائب البلاد التى يزورونها ، وكثيراً ما يسارعون إلى تصديق كل ما يسمعونه دون نقد أو تحليل أو تفسير لعقول .

ولم تبدأ الدراسات الجغرافية على أسس سليمة ، إلا بعد عصر الكشوف الجغرافية التى كان أهمها كشف أمريكا سنة ١٤٩٢ م ، وساعد على تقدمها ما صحبها من إتقان ودقة فى رسم الخرائط

وبعد أن كانت الجغرافيا القديمة مجرد سرد أرقام وقصص ومشاهدات أصبحت الجغرافية الحديثة علماً له أصوله وقواعده وفروعه المختلفة .

الفصل الأول

العرب أسبق الأمم إلى الكشوف الجغرافية

العرب من أكثر الأمم حباً للتنقل والسياحة وقد عرفوا بذلك في العصور القديمة . فقد هاجر كثير من القبائل من جنوب الجزيرة العربية وأواسطها إلى بلاد الأنهار أو بلاد الخصب الدائم أو المرعى الموفور ، وإن ما نراه من هجرة السوريين واللبنانيين إلى البلاد الأمريكية وغيرها لامتداد لذلك الميل الغريزى عند العرب . وكان اشتغال العرب بالتجارة براً وبحراً أكبر مشجع لهم على ارتياد الأماكن النائية .

هذه مصر ازدهرت فيها الحضارة منذ آلاف السنين فأرسلت البعثات لكشف حوض النيل وارتياد الصحراء الشرقية والليبية وشبه جزيرة سيناء ، ونشطت فيها الزراعة والصناعة وفاضت بها الغلات والمصنوعات فحملتها القوافل فى البر ومخرت بها السفن فى البحر متجهة إلى البلاد المجاورة لتصريفها فيها .

ولتسهيل نقل المتاجر من داخل البلاد إلى البحر الأحمر حفرة قناة سيزوستريس بين النيل وذلك البحر ، وعندما حفرت

قناة السويس بعد ذلك بألوف السنين اتبعت الطريق التى كانت تسير فيها القناة القديمة من البحر الأحمر إلى البحيرات المرة .

وفى عهد الملكة حتشبسوت (فى النصف الأول من القرن الخامس عشر قبل الميلاد) وصلت التجارة المصرية إلى بلاد بونت (الصومال) وجنوب الجزيرة العربية .

وفى القرن السابع قبل الميلاد تولى حكم مصر الملك نخاو Neco وكان عظيم الاهتمام بنشر تجارة مصر فى العالم الخارجى . وكانت قناة سيزوستريس قد أهملت وطمرتها الرمال فشرع نخاو فى إعادة حفرها ، ثم عدل عن ذلك بعد أن فقد فى هذه المحاولة ١٢٠ ألفاً من الفلاحين المصريين ، وبعد أن أنذره الكهنة بأن الأجانب سيتخذون من هذه القناة وسيلة للإضرار بمصر !

أول رحلة بحرية حول أفريقية :

لم يثن ذلك من عزيمة نخاو ، فوجه عنايته إلى إرسال البعثات البحرية ترتاد البحار للكشف عن الطرق التجارية والبحث عن بلاد جديدة للإتجار معها . وقد شجع نخاو على ذلك أمران :

١ ــ نجاح البعثة البحرية التى تمت فى عهد حتشبسوت

وقيام السفن المصرية فى السنوات التالية برحلات طويلة من البحر الأحمر نحو الجنوب .

٢ — كان له أسطول عظيم يعمل فى قيادته عدد كبير من الفينيقيين الذين كانوا وقتئذ أمهر الملاحين وأشجعهم وكان لهم على الملاحة فضل عظيم .

وكان البحر الأحمر يومئذ بحيرة فينيقية ، وفيه احتكر الفينيقيون التجارة مع الدول التى تطل على سواحله ، ولهذا كان اختيار نخاو لهم لقيادة سفنه فيه جانب كبير من بعد النظر حتى يضمن لأسطوله السلامة فى البحار ، ولا يتعرض له الفينيقيون فى الموانى التى يتجرون معها .

وقد أصدر نخاو أمره إلى أسطوله هذا بالسفر من قاعدته فى البحر الأحمر للطواف حول أفريقية والعودة عن طريق مضيق جبل طارق ، الذى كان القدماء يسمونه (عمود هرقل) .

وكان المصريون يعتقدون أن الأرض يحيط بها الماء من جميع الجهات ، فأراد نخاو برحلته هذه أن يكشف ذلك الجزء الذى يحيط بالساحل الإفريقى ، ولعله كان يأمل أن يعثر له رجاله على أراض تدر عليه الخير العميم .

خرج الأسطول المصرى الفينيقى من إحدى الموانى المصرية التى على البحر الأحمر ، وكان ملاحوه يعتقدون أنهم سيفرغون من رحلتهم فى بضعة أشهر . وسار الأسطول جنوباً والشمس عن

يساره محاذياً ساحل أفريقيا الشرقى ، ولقى كثيراً من المتاعب والمشاق بعد خروجه من البحر الأحمر عن طريق باب المندب، ومر ببلاد الصومال ، ثم انعطف الساحل نحو الغرب فوقع فى خلد الملاحين أنهم أوشكوا على الوصول إلى ساحل موريتانيا ، ولكنهم كانوا إزاء ساحل كينيا ، وساروا إزاء ساحل ناتال الحالية . . .

وذات يوم دهش الملاحون ، فقد رأوا الشمس تشرق عن يمينهم . . . ولم يدروا أنهم داروا حول الطرف الأقصى من جنوبى أفريقيا وهو الذى مر به بعد ألفى عام بارثلمى دياز Barthelmy Diaz وسماه رأس العواصف ثم سمى رأس الرجاء الصالح (أو عشم الخير !) .

وواصل الأسطول سبيل العودة محاذياً ساحل أفريقية الغربى ، حتى وصل مضيق جبل طارق . . ومن جبل طارق سارت سفن الأسطول حتى وصلت إلى أحد فروع النيل وسارت فيه حتى وصلت إلى عاصمة مصر . .

وبذلك انتهت تلك الرحلة وسجل التاريخ لمصر القيام بأول رحلة حول أفريقية .

وقد استغرقت هذه الرحلة نحو ثلاث سنوات ، نفدت فى خلالها مؤونة الملاحين مراراً ، فكانوا ينزلون إلى الساحل فيحرثون الأرض ويبذرون الحب وينتظرون حتى يحصدوا

محصوله ، ثم يواصلون سيرهم حتى تنفد مؤونتهم مرة أخرى فيعيدون الكرة ، وفضلا عن زراعتهم القمح فقد اشتغلوا أيضاً بصيد كثير من الأسماك والحيوان ، وليس هناك ما يدل على حدوث قتال بينهم وبين أهالى تلك البلاد ، بل يحتمل أنهم صادقوهم ومنحوهم هدايا .

وهكذا كان للعرب فضل السبق فى كشف طريق الرجاء الصالح قبل المحاولات التى قام بها البرتغاليون بنحو ألفى عام .

الفينيقيون والملاحة :

كان الفينيقيون فى طليعة الأمم القديمة التى اشتغلت بالتجارة عبر البحار . فركبوا البحر ووجدت فى بلادهم صناعة بناء السفن على ساحل البحر المتوسط الشرقى حيث قامت فينيقيا (لبنان الحالية تقريباً) وأصبحت تلك المنطقة عامرة بأسباب الملاحة والملاحين ومراكز التجارة لأن موانيها كانت نهاية الطرق البرية من قبل آسيا وبداية الطرق البحرية إلى القارتين الإفريقية والأوربية ، واتصل الفينيقيون بإخوانهم المصريين وهاجر عدد كبير منهم أقام فى العاصمة منفيس يشتغل بالتجارة واتخذوا حياً خاصاً عرف باسم حى « الصوريين » نسبة إلى صور . وامتد نشاط الفينيقيين إلى الجزء الغربى فأنشأوا مستعمرات عدة على سواحل البحر المتوسط أشهرها مستعمرة

قرطاجة شمال مدينة تونس الحالية ، وبنوا السفن عند العقبة وعمان كما بنوا فى العقبة أسطولا لسليمان الحكيم .

ومن العقبة اتجهت السفن العربية بين الهند وفارس وسواحل أفريقية الشرقية وسمى البحر هناك باسم بحر العرب وسمى الساحل الشرقى لأفريقية باسم السواحل ، وظل هذا الاسم حتى اليوم يطلق على اللغة التى يتكلمها الأفريقيون فى تلك الجهات إذ هى تسمى « السواحلية » .

من هذا التاريخ المجيد يظهر لنا أثر الفينيقيين فى إحكام الصلات بين أغلب الجهات المعمورة مما كان له أثره فى توسيع المعارف الجغرافية

وجرت عادة الملاحين فى الأزمنة القديمة أن يجوبوا البحار على مقربة من الشواطئ ، فكانت المسافة التى يقطعونها بين مكان وآخر أطول مما لو شقوا عباب البحر ، فضلا عن تعرضهم لخطر الارتطام بالصخور القريبة من الشواطئ ، كما أنهم كانوا يسيرون نهاراً فقط ، فإذا ما أقبل الليل أرسوا سفنهم فى مكان أمين . أما الفينيقيون فقد شقوا عباب البحر نهاراً وليلا ، مهتدين ليلا بالنجوم ، ولذا أطلق اليونانيون اسم « الفينيقى » على القطب الشمالى الثابت دائماً فى مكانه ، لأن الملاحين الفينيقيين اتخذوه مرشداً لهم فى أسفارهم .

وكانت منطقة جبل طارق فى القرن السابع قبل الميلاد تعج بالسفن الفينيقية التى تتجر مع إسبانيا والبرتغال وبريطانيا

ـ التى أطلق عليها الفينيقيون يومئذ « بلاد الصفيح » أو القصدير لأنهم كانوا يستوردونه منها ـ ويقال إن نشاطهم التجارى امتد إلى شمال غربى أوربا حيث شبه جزيرة إسكنديناوة (السويد والنرويج) حيث وجدت هناك عملات عربية .

وعرف الفينيقيون بمعاملة الشعوب الغريبة عنهم بالكرم والحسنى وكانت لهم طريقة لطيفة فى الاتجار مع الأجانب ، ذلك أنهم كانوا ينزلون إلى البر ، ويضعون بضاعتهم على الساحل ، ثم يوقدون ناراً يتصاعد دخانها ، ويعودون إلى سفنهم ، فعندما يرى الأهالى الدخان المتصاعد يسرعون نحو الشاطئ ويفحصون ما عليه من بضاعة ويضعون بجانبها ما تساويه فى نظرهم من الذهب ، ويتراجعون إلى مسافة بعيدة . عندئذ ينزل الفينيقيون إلى البر مرة أخرى ، فإذا راقهم ما تركه الأهالى من ذهب ورأوا أنه يكفى كثمن لبضاعتهم أخذوه ورحلوا ، أما إذا رغبوا ثمناً أعلى رفضوا أخذه ، وعادوا إلى سفنهم ثانية وانتظروا صابرين ، فيعود الوطنيون ويزيدون على الذهب ؛ ثم ينسحبون حتى يتأكدوا من رضاء التجار .

وقد اشتهر الفينيقيون البحارة بالاحتفاظ لأنفسهم بأسرار الطرق التجارية ، حتى تظل التجارة دائماً فى أيديهم . ومن المعروف أنهم كانوا ـ فى سبيل المحافظة على تلك الأسرار ـ يؤثرون الموت . ويروى أن إحدى سفنهم تعقبتها سفينة رومانية ، فما كان من السفينة الفينيقية إلا أن جنحت إلى أقرب شاطئ

ولم تتم رحلتها حتى يئست منها السفينة الرومانية ، وابتعدت عنها . بل إن الفينيقيين هم الذين ابتكروا تلك القصص المخيفة عن الأهوال التى يلاقيها كل من تجول فى البحار ، من حيوانات ضخمة ومخلوقات مخيفة وكوارث لا ينجو منها أحد ، مما نراه فى قصص السندباد وأمثالها ، فقد ابتكروا تلك القصص ليدخلوا الرعب فى قلب كل من تحدثه نفسه بركوب متن البحار للتجارة حتى يحتكروا ذلك الميدان .

وفى جنوب الجزيرة العربية قامت حضارات زاهرة فى اليمن ، كان اعتمادها على النشاط التجارى فى البحر العربى والمحيط الهندى ، فاتصل اليمنيون بشعوب أفريقية الشرقية وجزرها ، وكان لهم عليها بعض السلطان ، وكانوا يتجرون مع أهلها فى الأفاويه والطيوب ، كما اتصلوا بالهند وما وراءها من أقطار ، وإلى هؤلاء اليمنيين القدماء يرجع الفضل فى معرفة الطرق البحرية فى تلك الجهات .

العصر الإغريقى والرومانى :

ولما عظم شأن الإغريق والرومان احتفظت البلاد العربية بأهميتها كمركز للحركات الكشفية والدراسات الجغرافية أيضاً ، وساهم العرب فى معاونة الإغريق والرومان على كشف سواحل أفريقية الشرقية والغربية وبعض الطرق الصحراوية فى القارتين الأفريقية والآسيوية .

الفصل الثانى

اهتمام العرب بالرحلات

عندما بدأ القرن الثامن الميلادى أصبح للعرب ملك واسع الأرجاء . إذ أنهم فى أواخر القرن السابع وفى بداءة هذا القرن فتحوا بلاد ما وراء النهر – أى بلاد العجم أو فارس – وبلاد أفغانستان وبلاد الأندلس ، فامتدت دولتهم من حدود الهند شرقاً إلى المحيط الأطلنطى غرباً ، ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز إلى صحارى أفريقيا .

وكان لهذا الاتساع العظيم أثره فى اهتمام العرب بالجغرافيا وبالرحلات ، لعدة أسباب :

١ – أن هذا الملك الواسع الذى أسسه العرب كانت أنحاؤه المختلفة تتطلب الدراسة والوصف ، مما دفع بعض الخلفاء والحكام العرب إلى أن يوفدوا مبعوثيهم وسفراءهم إلى البلاد الإسلامية والعربية المختلفة لدراسة أحوالها ومعرفة طبائع سكانها وبيان الطرق والمسالك المؤدية إليها ، تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة بين سكانها ولتوثيق الروابط بين السلطة المركزية وبين حكام الأقاليم ، وقد اقتصرت هذه الرحلات على الدولة الإسلامية .

٢ – أن الإسلام يحث على طلب العلم وعلى تجشم المشاق

فى هذا السبيل ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم (اطلبوا العلم ولو فى الصين) أكبر دليل ، لذلك كان طلاب العلم يتركون أوطانهم ويسيرون شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً من إقليم إلى آخر يدرسون على مشاهير الأساتذة ويقابلون أعلام الفقهاء .

٣ ــ كان ألوف المسلمين يتجهون من أطراف العالم الإسلامى إلى الحجاز يحجون إلى بيت الله الحرام ، مما أتاح لبعضهم مشاهدة مناطق مختلفة وأقطار متعددة تناولوها بالوصف والتحليل فيما رووه أو كتبوه .

٤ ــ اتسع نطاق التجارة العربية فانتشرت قوافل التجار العرب فى أغلب أجزاء العالم المعروف فى ذلك الوقت ، وخاضت سفنهم مختلف البحار والمحيطات ، وعرفتهم الطرق التجارية المعروفة يومئذ . ولم تقتصر تلك الرحلات على البلاد العربية بل تجاوزتها إلى الدول المجاورة .

٥ ــ الثراء الذى امتازت به البلاد العربية فى العصور الوسطى .

٦ ــ الميل الغريزى عند العرب للبحث والاطلاع ، ولالذلك اتخذ كثير منهم السياحة وسيلة للدراسة والوقوف على ما بالبلاد الأخرى من عجائب وغرائب .

٧ ــ شعور العربى بأنه فى بلده ما دام فى ديار عربية .

٨ ــ كانت للعروبة هيبة فى سائر دول العالم ، فكان

العرب المسافرون يلقون من كرم الضيافة وحسن المعاملة ما يحبب إليهم الرحلات والأسفار .

٩ ـ أن الدين الإسلامى قدر متاعب السفر ، فخفف على المسافرين بعض الواجبات الدينية فى الصلاة والصوم .

١٠ ـ كان العالم العربى فى العصور الوسطى يمثل دائماً كتلة ثقافية وروحية واحدة على الرغم من المنازعات السياسية .

١١ ـ وكان العالم العربى كذلك يمثل وطناً حقيقياً لا للمسلمين فقط بل لمواطنيهم من المسيحيين واليهود أيضاً .

١٢ ـ ولو أن بعض العلماء فى الغرب يعزوا اختراع البوصلة للصينيين ، إلا أن القرائن تدل على أن العرب أول من استعملوها فى رحلاتهم البعيدة فضلا عن الاسطرلاب الذى ينسب للعرب اختراعه وصناعته .

كل تلك الأسباب هيأت للرحلات والأسفار ، فقام من العرب رحالة جابوا أرجاء العالم ، ولم تستطع الظروف السياسية كالحروب بين الملوك والأمراء أن توقف رحلات العرب إلا مؤقتاً ثم سرعان ما تعود سيرتها الأولى .

الفصل الثالث

أهمية الرحلات العربية

للرحلات العربية ميزات هامة منها :

١ ـ أنها ساعدت على زيادة المعلومات عن كثير من أجزاء العالم وكشف بعض المجهول منها ، فعرف العرب نواحي لم يعرفها الأوربيون إلا فى العصور الحديثة .

٢ ـ أنها سدت الفراغ أو الفجوة الزمنية بين عهد بطليموس العالم اليونانى وعهد ماركوبولو العالم الإيطالى .

٣ ـ أن ما كتبه العرب كان أساساً لما كتب فى العصور التالية فحققه الأوربيون أو زادوا عليه .

٤ ـ أن أخبار الرحالة العرب وقصصهم أكثر تنوعاً وأشد حيوية وقوة مما نجده مسطوراً فى مؤلفات علماء اليونان . فقد ساهموا فى التعريف بالشرق الأقصى وإفريقية ، وعبروا الصحراء ، وعرفوا مجاهل هذه القارة التى ظل الأوربيون حتى القرن الثامن عشر يقفون عند سواحلها . وكان الرومان يتخيلون وجود الصين ، ولكن الرحالة المسلمين عرفوها وكتبوا عنها منذ بداءة القرون الوسطى .

٥ ـ ظلت المعلومات التى قدمها الرحالة العرب المرجع الوحيد فيما بين القرن التاسع والرابع عشر للميلاد .

٦ ــ يبدو أثر العرب فى هذه النواحى فى هذا العدد الكبير من المصطلحات العربية الأصل التى تصادفنا فى مجموعة الألفاظ المتصلة بالتجارة والملاحة .

فضل العرب على علوم البحار :

ذكرنا ما كان للعرب فى مصر وفينيقية من أثر فى تقدم المعارف الجغرافية قبل ظهور الإسلام .

وفى خلال سنوات معدودات من فتح الشام ومصر بدأ العرب فى بناء الأساطيل البحرية التى مكنتهم من قهر أساطيل الروم فى البحر المتوسط .

وقد حدثت أول معركة بحرية عربية هامة فى ٢٩ أغسطس عام ٦٥٤ م عندما هزم أسطول عربى مكون من مائتى سفينة أسطولا بيزنطياً أكثر منـــه عدداً بالقرب من الإسكدرية فى المعركة المشهورة باسم « ذات الصوارى » ، وقد أصبح ذلك اليوم عيداً للبحرية العربية . ومنذ تلك الموقعة بدأ نشاط العرب البحرى ، الحربى والتجارى . فلما اتسعت الدولة العربية ازداد الاهتمام بصناعة السفن وتنظيم الأساطيل وإحياء المعارف البحرية للضرب فى شتى الآفاق بحثاً عن السلع والأسواق .

وكانت الأساطيل العربية تجرى ما يسمى بالمناورات أمام الخلفاء فى الأعياد والمواسم ، وانتشرت فى طول البحر المتوسط وعرضه وتملك العرب بواسطتها الكثير من جزره وبعض بلاده ،

وشهدت مصر والشام بعدئذ فى عهد الفاطميين والأيوبيين والمماليك معارك بحرية عدة انتصر فيها العرب على الأوربيين .

ولم يدون الملاحون العرب فى أول الأمر تجاربهم البحرية كعلم قائم بذاته ، بل اكتفوا بتداولها وتوارثها ، وتبادل الانتفاع بها شفاهة ، وقد ورد بعضها فى مناسبات عارضة ، تضمنتها مؤلفات الرحالة الجغرافيين .

غير أنه سرعان ما دعت الحاجة إلى دراسة فن الملاحة كعلم قائم بذاته ، فألفت فيه كتب اتسمت بطابع الحيوية والتجربة . دون فيها ربابنة السفن عصارة تجاربهم فى كتب بسيطة ذات أسلوب بسيط ولكنها عامرة بالحقائق الصادقة .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الربابنة وتجار البحر « كانوا يحتفظون بكتب يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها » . كما وضع أبو القاسم بن خرداذبة دليلا للمسافرين يصف فيه الطريق البحرى من مصب الدجلة فى الخليج العربى حتى موانئ الصين . ويشير المسعودى إلى تلك العلوم البحرية التى يتوارثها الملاحون ويسترشدون بأحكامها فيقول : « لكل من يركب هذه البحار من الناس رياح يعرفونها فى أوقات تكون فيها مهابها ، قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب يتوارثون علم ذلك قولا وعملا ودلائل وعلامات يعلمون بها موعد هيجانه وأحوال ثورانه » .

وأشهر من كتب فى فن الملاحة على الإطلاق أحمد بن

ماجد النجدى الذى اشتهر باسم « أسد البحار » ، وقد عاش فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وترك فى ذلك الفن مؤلفات قيمة ، منها « الفوائد فى معرفة علم البحر والقواعد » ويشمل دروساً فى تاريخ الملاحة وعلاقتها بالنجوم فى الخليج العربى وبحر الهند والشواطئ العربية والأفريقية .

وقد ورث ابن ماجد تلك الثقافة البحرية ، التى دعمها بتجاربه ، عن جده الربان « عمر بن فضل بن دويك النجدى » الذى ترك رسالة فى أصول الملاحة فى البحر الأحمر ، وأوقفها لخدمة سفن الحج ، وأضاف إليها ابنه المزيد من تجاربه .

وابن ماجد هو ذلك الربان العربى الذى استعان به فاسكو دى جاما فى الإبحار من الشاطئ الأفريقى إلى تاليقوت بالهند ، وأخذ منه فكرة الانتفاع بالرياح الموسمية فى السفر إلى الهند ، ثم قتله هناك . . وهكذا يكون الوفاء !

وقد روى الرحالة الإنجليزى (برتن Burton ١٨٢١—١٨٩٠) أنه لقى بحارة فى عدن يتلون الفاتحة قبل إبحارهم ، على روح ابن ماجد الشهيد .

الفصل الرابع

العرب في إفريقية

لما ظهر الإسلام رحل كثيرون من العرب فى القرنين الأولين للهجرة إلى سواحل أفريقية الشرقية والشمالية فسكنوا تونس وطرابلس . واجتاز كثيرون منهم صحارى القيروان وليبيا ، وتوغلوا فى البلاد ، وذهب بعضهم إلى السودان عن طريق مصر وقنا . وكانت القصير مرفأ لمراكبهم ، يبحرون منها إلى مضيق باب المندب فى البحر الأحمر ، ويرتادون السواحل الشرقية .

وقد وصل بعضهم فى القرن الأول الهجرى إلى سواحل جزيرة مدغشقر جنوباً ، وأسسوا فى شماليها مملكة عربية ، ما زالت آثارها وقلاعها وبقايا شعوبها ماثلة إلى الآن ، كما أن لغتهم عربية قديمة مشوبة بالحميرية .

وفى القرن الرابع للهجرة كانت كل سواحل إفريقية الشرقية وبلاد الزنج التى تليها معروفة عند العرب ، فاستوطنوها واتجروا مع أهلها فى العاج والذهب والطيوب العطرية ، وهم الذين سموا بلادها وأنهارها وجبالها بأسمائها المعروفة الآن .

وقد امتد ملك العرب فى داخل أفريقية شمالا وغرباً وشرقاً

حتى بلاد الكونغو والزولو ، ولم تزل آثارهم هناك إلى الآن .

وقد استدل العلماء من تلك الآثار على أن العرب منذ صدر الإسلام عرفوا أكثر بلاد أفريقية ، فوصلوا إلى منابع النيل ، وتوغلوا فى بحيراتها وغاباتها ومجاهلها ، ولم يكن الأوربيون يعرفون من ذلك شيئاً إلى وسط القرن الماضى ، فكان العرب أسبق إلى تلك البلاد السحيقة من الغربيين بعشرة قرون .

وقد أثبت أصحاب الخطط — وبينهم المقريزى — أن كل سواحل أفريقية الشمالية والشرقية والجنوبية ، قد كشفها العرب بعد الفتح الإسلامى بزمن وجيز ، على عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين ، فى إبان مجد العرب وسعة سلطانهم ، ثم توغلوا فى مجاهل النيل والنيجر والكونغو .

وفى بدء الفتوح الإسلامية اجتازت مراكبهم سواحل أفريقية كلها ، وملكوا الصومال وممبسة وزنجبار وموزمبيق وجزائر القمر ووسعوا تجارتهم فى تلك الجهات ، فاتجروا فى الذهب وريش النعام والعاج والتوابل والطيوب .

العرب فى آسيا :

وكما اتصل العرب بأفريقيا فقد اتصلوا بآسيا براً وبحراً ، ونزل أول أسطول عربى إسلامى بمصبات السند وشواطئ الهند

بعد الهجرة النبوبة بستة عشر عاماً ونزلوا بعدئذ بجزيرة سيلان وأقامت فيها جالية إسلامية كبيرة ، ولم تمض على الهند بضعة قرون حتى قامت فيها دولة المغول الإسلامية .

ولا شك أن الملاحين العرب قد مهدوا الطريق أمام الفتوحات الإسلامية فى آسيا عامة وفى الهند خاصة .

وكان اتصال العرب بالهند وبجزيرة سيلان مصدر قصة السندباد البحرى ، ونجد صدى آخر لأسفار العرب إلى تلك الجهات فى كتاب ألف ليلة وليلة .

ولم يقف العرب عند حدود الهند بل تجاوزوها فى أسفارهم إلى بحر الصين وإلى الصين ذاتها ، ونزلوا فى جزائر الهند الشرقية التى تعرف اليوم باسم « إندونيسيا » .

العرب وكشف أمريكا :

من المعروف أن مكتشف أمريكا — أو العالم الجديد — هو الملاح الجنوىّ الأصل الإسبانى الجنسية كريستوف كولمبس .

والواقع أن مكتشفين أو مغامرين آخرين ، قد وصلوا إلى بعض أطراف أمريكا ، قبل كريستوف كولمبس ، بقرون ، أو بسنين .

وليس ينقص من قدر هذا البحار المغامر العظيم ، أن يقال

اليوم إن غيره من الملاحين قد سبقوه إلى كشف الدنيا الجديدة .

والذى يهمنا من تلك المغامرات هو ما قام به العرب إذ ثبت أنهم حاولوا اكتشاف أمريكا ، ويستند أصحاب هذه الرواية إلى ما كتبه الإدريسى فقد ذكر :

«أن جماعة من لشبونة عرفوا باسم المغرورين — وهم ثمانية فتيان إخوة أو أبناء عم — أنشأوا لهم مركباً كبيراً وزودوه من الماء والزاد ما يكفيهم عدة أشهر ، ثم خرجوا من ثغر لشبونة وساروا إلى الغرب نحو أحد عشر يوماً ، فوصلوا إلى مكان شديد الموجة فأيقنوا بالهلاك وأقلعوا ناحية الجنوب ووصلوا إلى جزيرة فيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل وهى سارحة لا راعى لها ، فنزلوا فيها ووجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى ، ولما ذبحوا بعض تلك الأغنام ، وجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها فأخذوا جلودها وأبحروا نحو الجنوب اثنى عشر يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة أخرى ، فوجدوا فيها عمارة وحرثاً فقصدوا إليها ليروا ما فيها فما لبثوا حتى أحيط بهم فى زوارق هناك، فأخذوا وحملوا فى مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر فأنزلوا بها ، فرأوا فيها رجالا ، شعورهم مسبطة وطوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب فاعتقلوا فيها ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع دخل عليهم رجل يتكلم العربية ، ثم سألهم عن حالهم وفيم جاءوا وأين بلدهم ، فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيراً ، وأخبرهم أنه ترجمان الملك ، فلما كان اليوم الثانى ،

أحضروهم بين يدى الملك ، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروه بأنهم اقتحموا البحر ليروا ما فيه من العجائب فيقفوا على نهايته ، فلما علم الملك ذلك ضحك ، وقال للترجمان : أخبر القوم أن أبى أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر وأنهم جروا فى عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا بغير حاجة ولا فائدة تجدى .

وبعدئذ اعتقلهم الملك وأمر بتقييدهم وتركوا على الشاطئ حتى أنقذهم بعض الأهالى وأعلموهم أن بينهم وبين الأندلس مسيرة شهرين وأن المكان الذى رسوا فيه يقع فى أقصى المغرب».

ولا يستبعد أن يكون الشاطئ الذى رسوا فيه إحدى جزر أمريكا الجنوبية الواقعة شرق البرازيل ، فإن مثل هذه المدة التى قطعوها تحملهم إلى هذه المنطقة . ولا يستبعد بعد ذلك أن يكون هؤلاء العرب قد استوطنوا هذه الجزيرة ثم توغلوا فى القارة الجنوبية .

عرب السودان الغربى يحاولون كشف أمريكا :

حاول عرب السودان الغربى فى أوائل القرن الثامن الهجرى أن يبلغوا الشاطئ الغربى من المحيط الأطلانطى (بحر الظلمات) فقد كانت هناك مملكة إسلامية عظمى فى بلاد مالى تعر ف باسم بلاد « التكرور » وهو أحد أقاليم تلك المملكة الواسعة . وقد حكمها فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ملك يدعي

« منسى موسى » ، وحدث أن أراد ذلك الملك الحج سنة ٧٢٤هـ سنة ١٣٢٤ م فمر بمصر وقابل الملك الناصر وقدم له ولأتباعه هدايا فاخرة .

وقد روى مؤلف مسالك الأبصار أن أحد حجاب الملك الناصر ، سأل هذا الملك عن سبب انتقال الملك إليه فقال : « إن الذى قبلى كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ، فجهز مائتى سفينة ، وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا غايته ، أو تنفد أزوادهم . وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم ، فقال : سارت السفن زماناً طويلا حتى عرض لها فى البحر فى وسط اللجة واد له جرية عظيمة ، فابتلع تلك المراكب ، وكنت آخر القوم ، فرجعت بسفينتى . فلم يصدقه ، فجهز ألفى سفينة : ألفاً للرجال وألفاً للأزواد ، واستخلفنى ، وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك ، فكان آخر العهد به وبمن معه . »

وقد أثير موضوع سبق العرب لكشف أمريكا خلال شهر أبريل سنة ١٩٦١ ، ذلك أن الدكتور « هوى لزلى » ــ العالم الصينى المولد وخريج جامعة هارفارد الأمريكية وأستاذ علم النبات بجامعة بنسلفانيا الأمريكية ــ ألقى بحثاً فى الجمعية الشرقية الأمريكية « بمدينة فيلادلفيا » التى تضم أساتذة الدراسات الجغرافية ، وقد استند فى بحثه إلى وثائق محفوظة فى الصين يرجع عهدها إلى القرن الثانى عشر والثالث عشر ،

وقد ورد فيها اسم مدينة« مولان بى » على الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية وأنه كان من المحاصيل التى تنتجها تلك المدينة الذرة الهندية ، والقرع العسلى ، وثمار غريبة نعرفها حالياً باسم الجوافة والبيباز والأناناس ، وهذه كلها لم تكن معروفة قبل كولومبس ، ولكن الوثائق أثبتت أنها كانت معروفة للعرب الذين قاموا قبل عام ١١٠٠ من الطرف الغربى للعالم الإسلامى — ومن ميناء الدار البيضاء على التحديد — ورسوا فى عدة مواضع على الساحل الأمريكى .

وانتهى الدكتور (لزلى) إلى أن البحارة العرب قاموا نحو عام ١١٠٠ من الطرف الغربى للعالم الإسلامى — ومن ميناء الدار البيضاء على التحديد — ورسوا بسفنهم فى عدة مواضع على طول الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية .

وقد وصل الدكتور « لى » إلى هذا الرأى بعد أن أنفق الأعوام الثمانية الأخيرة فى تتبع انتشار المحاصيل الزراعية والحيوانات فى شتى أنحاء العالم ..

وقد أيد هذه النظرية الدكتور لين شنج يانج أستاذ التاريخ واللغة الصينية بجامعة هارفارد ، ووصفها بأنها مثيرة للغاية . كما أيدها الدكتور ريتشارد رودلف رئيس المؤتمر الذى عقدته الجمعية الشرقية الأمريكية ، وقال : والآن ينبغى على الأساتذة العرب أن يتابعوا دراسة تاريخهم ، وليبدأوا من هذه المنطقة .

وهذه هي المرة الثالثة التي يعاد فيها بحث هذه المسألة منذ

مطلع القرن العشرين ، فإن مدير متحف البرازيل عثر قبل نهاية القرن التاسع عشر على صخرة إلى جوار ريو دى جانيرو عليها نقوش قريبة الشكل من الحروف العربية القديمة (أو الفينيقية)

فإذا كانت الرحلة من أفريقية إلى أمريكا الجنوبية قد حدثت حوالى القرن الثانى عشر ، فالمحقق أن الملاحين العرب هم الذين قاموا بها ، إذ أن الملاحة العربية يومئذ كانت الملاحة الوحيدة التى تستطيع القيام بمثل تلك الرحلة ، لأن العرب بنوا نوعاً من السفن لاختراق المحيطات

فإذا كانت الرحلة قد تمت فمن المحقق أن القائمين بها كانوا من العرب ، وذلك لأن العرب آمنوا بكروية الأرض فى الوقت الذى كان فيه علماء أوربة يقولون بأن الأرض مسطحة . . بل إن الكنيسة الغربية عاقبت كل من شك فى هذا الادعاء . . وقد نادى بمبدأ كروية الأرض أكثر من واحد من الجغرافيين العرب مثل ابن خرداذبة وابن رستة وغيرهما .

وهذا الإيمان لم يكن كافياً وحده لدفع الجغرافيين العرب للاتجاه غرباً واكتشاف أمريكا ، بل يسره لهم معرفتهم للبوصلة واستخدامهم لها على نطاق واسع فى الملاحة قبل أن تعرفها أوربا بمئات السنين .

وكانت فكرة البوصلة واستخدامها هى الخطوة الثانية التى كان لابد منها لتشجيع الجغرافيين العرب على ارتياد المحيط

الواسع المجهول وهم مطمئنون إلى أنهم لن يضلوا طريقهم . .

ومن هنا يمكن القول بأنه من المستبعد أن يكون العرب قد ارتادوا المحيط الأطلنطى من غير أن يكتشفوا أمريكا .

وقد روى المسعودى فى أوائل القرن العاشر للميلاد فى كتاباته أن الشمس إذا غربت على بحر الظلمات (المحيط الأطلانطى) كان ظهورها بعد ذلك على شواطئ الصين الشرقية ، ومن هذا وأمثاله علم كولمبس أنه يصل إلى الهند إذا اتجه غرباً من إسبانيا ، فليس بالمستغرب أن يقدم على هذه المحاولة قبله من كانوا يطلعون فى كتبهم الجغرافية على هذه المعلومات . .

وحسبنا حتى الآن من فضل هذه الكشوف أنها لم تكن لتحدث لولا الجغرافية العربية والملاحة العربية ، أيا كان المنتفعون بهما من أبناء الشمال أو أبناء الجنوب .

الفصل الخامس

بعض الجغرافيين والرحالة العرب :

وقد ظهر بين العرب عدد كبير من الجغرافيين من فلكيين ورحالة ، كلهم أفادوا العالم بما ألفوه من الكتب فى علم الفلك ، أو وصف لرحلاتهم وصفاً جمعوا فيه ما شاهدوه خلالها ، مما يتصل بشتى ضروب المعرفة من تاريخ واجتماع وجغرافيا وغير ذلك .

وقد يضيق النطاق عن حصرهم جميعاً ولذلك سنكتفى بإيراد تراجم موجزة للتعريف بأشهرهم وبيان جهودهم مع بعض مقتطفات مما كتبوه أو رووه .

وقد راعينا فى ذكرهم الترتيب التاريخى بقدر الإمكان ، وها هى أسماؤهم :

الخوارزمى ، سليمان السيرافى ، ابن خرداذبة ، ابن فضلان ، اليعقوبى ، البلخى ، البتانى ، الاصطخرى ، المسعودى ، البكرى ، ابن حوقل ، المقدسى ، الإدريسى ، ناصرى خسرو ، أبو حامد الغرناطى ، الهروى ، ابن جبير ، ياقوت الحموى ، عبد اللطيف البغدادى ، ابن سعيد ، القزوينى ، العبدرى ، أبو الفدا ، ابن بطوطة ، ابن خلدون .

الخوارزمى

هو أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى ، أصله من خوارزم . وقد ظهر الخوارزمى فى عصر المأمون وكانت له مكانة سامية لديه ، فأحاطه بالرعاية ووكل إليه شئون « دار الحكمة » التى أنشأها فى بغداد .

ويعتبر الخوارزمى واضع الأساس الأول لعلم الجغرافية العربى ، ذلك أن كتابه صورة الأرض الذى وضع فى أواخر عهد المأمون — أو فى عهد خليفته المعتصم على ما يراه بعض المستشرقين — يعتبر من أمهات الكتب ، ويكفى أن نذكر ما سجله عنه المستشرق « نللينو » الإيطالى إذ يقول إنه ما من أمة أوربية كان فى مقدورها أن تنتج مثل هذا الكتاب فى فجر نشاطها العلمى . وقد أورد الخوارزمى فى كتابه الأسماء اليونانية القديمة والأسماء المعاصرة له ، مما يدل دلالة واضحة على اهتمامه ببطليموس وتأثره به .

وقد اشترك الخوارزمى فى وضع الخرائط التى طلبها المأمون للأرض ، كما رسم مصوراً لوادى النيل بعد أن اشترك فى قياس درجة من درجات محيط الأرض .

وتوفى سنة ٢٣٦ هـ ٨٥٠ م .

سليمان السيرافى

تاجر عراقى الأصل ظهر فى القرن التاسع الميلادى ، كان مقيماً بسيراف على الساحل الشرقى للخليج العربى ، وكانت يومئذ ميناء فارسياً هاماً .

وقد رحل طلباً للتجارة واجتاز بحار الهند ماراً بسيلان وملقا وزار بلاد الصين ، ودون أخبار رحلته سنة ٢٣٧ هـ سنة ٨٥١م فوصلت إلينا فى كتاب لعراقى مجهول يدعى « أبو زيد حسن السيرافى » ذيلها بطائفة من المعلومات عن الهند والصين وبيانات دقيقة عن علاقة العرب بهاتين الأمتين فى القرنين التاسع والعاشر بعد الميلاد .

وتمتاز هذه الرحلة والذيل الذى وضعه أبو زيد بما فيهما من وصف صادق للطرق التجارية والعادات وأهم المنتجات فى الهند وسيلان وجاوة والصين . كما أن بها أحاديث عن أحوال الصين الاجتماعية فى ذلك العهد وعلاقة المسلمين بها يومئذ ورعاية ملوكها للمسلمين الذين يقصدونها للإقامة بها ومنحهم نوعاً من الامتيازات الأجنبية ، إذ كان ملك الصين يولى رجلا مسلماً الحكم بين المسلمين المقيمين هناك ليصلى بهم ويقيم بينهم أحكام الشريعة الإسلامية .

وفى تلك الرحلة أيضاً أول إشارة لمؤلف غير صينى عن

الشاى ، فقد جاء عنه أن « عند أهل الصين حشيشاً يشربونه بالماء الحار ويقال له الساخ . . . وفيه مرارة ويغلى الماء ويذر عليه منه » .

وفيه يروى إشارة إلى أن بصم أصابع اليد عوضاً عن الإمضاء كان أمراً مألوفاً فى الصين .

وتعتبر رحلته هذه أساساً لما ألف بعدئذ من قصص السندباد البحرى ، لما ورد فيها من أخبار عجيبة .

ابن خرداذبة

هو أبو القاسم عبد الله بن خرداذبة . فارسى الأصل ، كان مجوسياً ثم أسلم على يد البرامكة . قدم إلى بغداد وتعرف على إسحق الموصلى الموسيقى الشهير ودرس عليه الموسيقى ، ثم تولى إدارة البريد والخدمة السرية فى إقليم الجبال (ميديا جنوب غربى بحر قزوين) وقد مكنه هذا العمل من الحصول على معلومات قيمة عن الأماكن النائية ، وأقام فى سامرا على نهر دجلة حيث وضع كتابه « المسالك والممالك » سنة ٢٣٠ هـ سنة ٨٤٤ م وهو أول كتاب جغرافى يتضمن دليلا للطرق وأشهر البلاد التى تقع عليها ، وقد تناول فيه وصف الصين وكوريا واليابان ، كما ذكر الطرق التجارية الرئيسية فى العالم العربى . وهو هام أيضاً فى الطبوغرافيا التاريخية ، وقد اعتمد عليه من جاءوا بعده من

الجغرافيين . ومما يؤسف له أن هذا الكتاب فقد ، ولا توجد منه اليوم سوى نسخة مختصرة .

وقد توفى سنة ٣٠٠ هـ — سنة ٩١٢ م .

ابن فضلان

هو أحمد بن عباس بن رشيد . كان مولى لأحد الخلفاء العباسيين وللقائد محسن بن سليمان الذى أعاد مصر سنة ٢٩٢ هـ — سنة ٩٠٥ م إلى سلطان الخلافة العباسية بعد أن استقل بها الطولونيون ، وقد نال فى بغداد حظوة عند الخليفة لوفرة علمه .

وحدث فى سنة ٣٠٩ هـ — سنة ٩٢١ م أن أرسل ملك الصقالبة (البلغار) — وكان هذا الملك يقيم حول نهر الفولجا شرق موسكو — إلى الخليفة يطلب إليه أن يرسل له من يفقهه فى الدين ويعرفه شرائع الإسلام ، ويبنى له مسجداً وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة فى جميع أجزاء مملكته ، ويبنى له حصناً يتحصن فيه من أعدائه . فرحب الخليفة بهذا الطلب ، وانتدب وفداً للقيام بما طلبه ملك الصقالبة . وعهد لأحمد بن فضلان برئاسته

وغادر الوفد بغداد سنة ٣٠٩ هـ سنة ٩٢١ م ووصل إلى ديار الصقالبة بعد أحد عشر شهراً لقى خلالها المصاعب الكثيرة من البرد والتعرض للكيد والنهب وما إلى ذلك ، وفى طريق عودته

إلى بغداد دوّن وصفه لرحلته . وكان ما كتبه مرجعاً لمن جاءوا بعده كالاصطخرى والمسعودى وياقوت الذى أخذ عنه الكثير فى « معجم البلدان » . وقد عنى المستشرقون بهذه الرحلة كثيراً لأنها أحد المصادر النادرة للتعريف بتلك المنطقة التى كانت منعزلة عن العالم يومئذ .

وقد ذكر ابن فضلان بعض العجائب التى لفتت نظره فى بلاد الصقالبة ، فمن ذلك وصفه لليل والنهار ، إذ قال : «إنه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار . فلما كانت الليلة الثانية جلست خارج القبة وراقبت السماء فلم أر من الكواكب إلا عدداً يسيراً ظننت أنه نحو الخمسة عشر كوكباً متفرقة . وإذا الشفق الأحمر الذى قبل المغرب لا يغيب البتة . وإذا الليل قليل الظلمة . . . ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمر كل شىء فيه من الأرض والجبال وكل شىء ينظر الإنسان إليه حين تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى ، فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبد السماء . وعرفنى أهل البلد أنه إذا كان الشتاء عاد الليل فى طول النهار ، وعاد النهار فى قصر الليل . »

وتحدث عن تجمد نهر جيحون قائلا : « وجمد نهر جيحون من أوله إلى آخره . وكان سمك الجمد سبعة عشر شبراً ، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجول تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق ، وهو ثابت لا يتخلخل ، فأقام على ذلك ثلاثة

أشهر . فرأينا بلداً ما ظننا إلا أن باباً من الزمهرير قد فتح علينا منه ، ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديدة . وإذا أتحف الرجل من أهله صاحبه ، وأراد بره قال له : « تعال إلى حتى نتحدث فإن عندى ناراً طيبة . . . »

ولقد كنت أخرج من الحمام ، فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتى وهى قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار . »

ووصف ابن فضلان روسيا وبلاد الخزر وشعوبهما فقال عن معاملة الروس للمرضى : « وإذا مرض منهم الواحد (ضربوا له خيمة) نائية عنهم ، وطرحوه فيها ، وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء ، ولا يقربونه ولا يكلمونه ، بل لا يتعهدونه فى كل أيام مرضه لا سيما إن كان ضعيفاً أو مملوكاً . فإن برئ وقام رجع إليهم ، وإن مات أحرقوه ، فإن كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير . »

اليعقوبى

هو أحمد بن أبى يعقوب بن واضح العباسى إذ ينتسب إلى أسرة الخلفاء العباسيين فى مصر . وقد قام برحلات طويلة فى أرمينية وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب ثم عاد إلى بغداد حيث توفى سنة ٢٨٤ هـ سنة ٨٩٧ م .

وأهم مؤلفاته «كتاب البلدان وفيه تناول وصف بغداد وسامرا وإيران والكوفة والبصرة وجزيرة العرب الوسطى والجنوبية والشام ومصر وبلاد النوبة والمغرب ، وقد فقدت الفصول الخاصة بالهند والصين والإمبراطورية البيزنطية .

وقد حرص فى هذا الكتاب على تدوين ملاحظاته عن المظاهر الطبيعية وعن المجتمعات التى شاهدها ، ولذلك يعتبر فى طليعة المهتمين بالجغرافية البشرية .

وقد أبدى فى كتابه شدة تعلقه ببغداد إذ يقول : «وإنما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرة الأرض ، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التى ليس لها نظير فى مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبراً وعمارة وكثرة مياه »

وقد امتاز كتابه هذا بأنه وصف فيه الدولة الإسلامية فى عصره وصفاً دقيقاً منظماً ، لذلك لم يكن كثيراً عليه تقدير الجغرافيين له إذ وصفوه بأنه « أبو الجغرافية الإسلامية » .

البلخى

هو أبو زيد أحمد بن سهل . ولد بجوار بلخ ، ثم قصد إلى العراق طلباً للعلم حيث قرأ التاريخ والفلسفة على الكندى فى بغداد ، فلما عاد إلى بلده عمل فى خدمة أميرها السامانى . .

وكان البلخى قليل الرحلة ، وقيمته ليست فيما كتب عن البلدان ومراحلها ، ولكنه كان أول من استقل عن بطليموس . فقد

وضع «كتاب الأشكال أو صورة الأقاليم» وهو ما يصح أن يسمى بداءة الأطلس العربى ، إذ أنه مجموعة من الخرائط والرسوم مع الشرح والبيان ، وبذلك فتح فتحاً جديداً فى رسم الخرائط وشرحها وقد ألف البلخى أيضاً كتاب المسالك والممالك .
وتوفى سنة ٣٢٢ هـ سنة ٩٣٤ م .

البتانى

هو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البتانى . ولد لأسرة كانت فى مبدأ أمرها صابئية ولذلك قيل له الصابى ، أما هو فكان مسلماً . ويسمى الرّقّىّ نسبة إلى الرقة على الضفة اليسرى من نهر الفرات ، حيث قضى معظم حياته ، وتوفى سنة ٣١٧ هـ سنة ٩٢٩ م .

ابتدأ البتانى فى دراسة الفلك وفى رصد النجوم فى الرقة سنة ٢٦٤ هـ سنة ٨٧٧ م ، فعكف على الرصد والتحقيق إلى آخر أيام حياته ، واستنبط حقائق جليلة القيمة ، شهد بفضلها العلماء فى زمانه ومن بعده ، ولا سيما فى الغرب حتى القرن الثامن عشر والتاسع عشر .

وقد أطلق عليه بعضهم اسم « بطليموس العرب » ، إذا أكب على دراسة كتب بطليموس وتفهمها أحسن تفهم ، ثم ناقضها فى مواضع كثيرة وصحح أغلاطها .

وتمكن البتانى بفضل أرصاده الخاصة من أن يحدد تحديداً دقيقاً مقدار ميل فلك البروج ، وحسب طول السنة الشمسية والفصول ومدار الشمس الحقيقى والمتوسط ، وحقق كثيراً من مواقع النجوم وبحث فى حركات القمر والكواكب السيارة وصحح بعض المعلومات عنها ، وأثبت خطأ بطليموس فى بعض ما ذهب إليه . وابتدع طريقة بارعة فى تحديد الظروف والأحوال لرؤية القمر عند تولده .

واكتشافاته فى الرياضيات جعلته أول من أسس علم المثلثات الحديثة من مسطحة وكروية ، وجميع تصانيفه مفقودة إلا كتاب الزيج المعروف بزيج الصابى . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية .

وقد اتبع البتانى الطريقة العلمية الحديثة فى جميع بحوثه الفلكية . فقد درس أولا ما كتبه السلف عن علم النجوم ثم قام بالرصد بنفسه ، للتحقق أولا من صحة ما ورد فى كتب السلف وثانياً لتصحيح ما قد تطرق إلى تلك الكتب من الأخطاء وثالثاً لوضع نظريات أو طرق علمية جديدة واستنباط معلومات ودساتير علمية جديدة . وقد وفق فى هذه الأمور جميعها توفيقاً نادراً .

الاصطخرى

هو إسحق أبو إبراهيم بن محمد ، ينسب إلى بلدة اصطخر (برسبوليس) فى فارس .

عاش فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى الموافق للنصف الأول من القرن (العاشر الميلادى) . ووضع كتابه « الأقاليم » ووضحه بالخرائط ، كما ألف كتاب المسالك والممالك عام ٣٢٢ ﻫ ٩٣٤ م الذى وصف فيه نتائج مشاهداته فى الأقاليم التى زارها .

ويرى المشتغلون بدراسة المؤلفين الجغرافيين العرب أن الاصطخرى اعتمد على البلخى فى كتابه ، بل وفى خرائطه .

وقد تلاقى ابن حوقل بالاصطخرى (سنة ٣٤٠ ﻫ سنة ٩٥١ ـ ٩٥٢ م) وذكر أن الاصطخرى صنع خريطة غير دقيقة للسند لكنه صنع خريطة دقيقة لفارس ، فأراه ابن حوقل خريطتين من صنعه إحداهما لأذربيجان والأخرى للجزيرة ، فأعجب بهما الاصطخرى وطلب من ابن حوقل أن يراجع له كتابه وينقحه ويحسنه فأجابه إلى طلبه ، وبذلك أصبح الاصطخرى دليل الرحالة الجغرافى . ولما ألف ابن حوقل كتابه سار على نهج الاصطخرى ، ولكن خرائطه كانت أدق .

وكتابا الاصطخرى وابن حوقل يضمان وصفاً دقيقاً لكل جزء

من أجزاء العالم الإسلامى وأشهر مدنه وأماكنه .

ومما يسجل بالإعجاب ما يذكره الدكتور فيليب حتى فى كتابه « تاريخ العرب » من أن الاصطخرى زين كتابه بالخرائط الملونة ، كل دولة على حدة .

المسعودى

هو أبو الحسن على بن الحسين ، ويتصل نسبه بعبد الله ابن مسعود ، ومن هنا جاءت النسبة . نشأ فى بغداد وهى مركز من مراكز العلم الكبرى ، ثم أقبل على العلم والتجول وجمع كثيراً من الحقائق الجغرافية والتاريخية ولذلك كانت شهرته كمؤرخ وجغرافى على السواء . فزار فارس ثم الهند وسرنديب (سيلان) ورافق بعدئذ جماعة من التجار إلى الصين وجال فى المحيط الهندى فزار زنجبار وسواحل أفريقية الشرقية ومدغشقر والسودان ، ثم طاف بآسيا الصغرى والشام والعراق وعمان وأخيراً قصد إلى مصر واستقر بالفسطاط سنة ٣٤٥ هـ وتوفى فيها فى السنة التالية ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م)

وقد كتب المسعودى عشرات من الكتب ، عما لقيه من التجارب والمشاهدات خلال رحلاته ولكن أكثرها ضاع ، ككتاب « أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الدائرة » ، وكان يضم ثلاثين مجلداً

لا يوجد منها سوى جزء واحد فى مكتبة فينا ، هو الجزء الأول .

وقد قدم المسعودى لكتابه هذا بالحديث عن هيئة الأرض ومدنها وجبالها وأنهارها ومعادنها وانقسام الأقاليم وتباين الناس . . . إلخ ، ثم أتبعه بكتاب « الأوسط » فجعله إجمال ما بسطه ، وهو بدوره لا توجد منه سوى نسخة فى أكسفورد يقال إنها مخطوطة لهذا الكتاب .

أما أعظم كتبه التى وصلت إلينا فهى :

١ – « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الذى يعتبر من أجل المصنفات العربية ، وقد قال فى مقدمته إنه أراد به إجمال ما بسطه فى كتاب « أخبار الزمان » واختصار ما بسطه فى كتاب « الأوسط » وفيه تعرض لعدة معلومات جغرافية كاستدارة الأرض وإحاطتها بغلاف جوى ، وبحث طبيعة العواصف فى الخليج العربى والجهات المجاورة ، وشرح ظاهره المد والجزر .

وهو قسمان : أولهما وصف الخليقة وقصص الأنبياء باختصار ، ثم وصف الأرض والبحار والعجائب والغرائب وتاريخ الأمم القديمة وما كان لها من الأديان والعادات والمذاهب ، وعرض للأيام والشهور والتقاويم وكل ما يتعلق بذلك من جزئيات وكليات .

أما القسم الثانى فيتناول تاريخ الإسلام من أواخر عهد الخلفاء الراشدين إلى أوائل خلافة المطيع لله العباسى .

٢ – «التنبيه والإشراف»: ويتناول الأفلاك وهيئاتها ، والنجوم وتأثيراتها ، والعناصر وتراكيبها ، وكيفية أفعالها ، والبيان عن قسمة الأزمنة ، وفصول السنة ، وما لكل فصل من المنازل والتنازع فى المبتدأ به منها . . . والرياح ومهابها وأفعالها وتأثيراتها ، والأرض وشكلها وما قيل فى مدار مساحتها وعامرها وغامرها ، والنواحى والآفاق وما يغلب عليها . . . »

ويغلب على المسعودى تواضع العلماء ، ولذا نجده فى مروج الذهب يرجو القارئ أن يعذره عما يجده من تقصير ، أو إغفال « لما قد شاب خواطرنا وغمر قلوبنا ، من تقاذف الأسفار وقطع القفار ، تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر» ،

والمطلع على مؤلفات المسعودى يلاحظ إشاراته الكثيرة لمؤلفات عدة لم يعد لها وجود ، مما يدل على أنه قرأ كل ما تيسر له فى عهده . وبعض أفكاره الجغرافية سبقت الإشارة إليها فى مؤلفات من سبقوه ، وهو ينفرد بمزية لم يشاركه فيها من قبله من جغرافيي العرب إذ تحدث عن الشعوب والبلاد المجاورة للعالم الإسلامى فى عصره .

ولم تخل كتابات المسعودى مما وقع فيه غيره من الجغرافيين والمؤرخين العرب ، إذ يميل إلى الاستطراد وتسجيل الخرافات والموضوعات السطحية دون أن يتناولها بالنقد العلمى .

وقد قال ابن خلدون عن المسعودى إنه « صار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه وأصلا يعولون فى تحقيق الكثير من

أخبارهم عليه » . وقدر علماء الإفرنج جهوده فسموه « بلينيوس المشرق » .

البكرى

هو أبو عبيد بن عبد الله البكرى ، ولد فى بيت شرف وإمارة بإحدى إمارات الأندلس ، فلما اغتصبت الإمارة من أسرته بعد سقوط الخلافة فى الأندلس لجأ أبوه إلى قرطبة وأقام فيها .

ولد المترجم له سنة ٤٣٢ هـ ١٠٤٠ م والتحق بخدمة بعض الأمراء وهوى القراءة وأحب الكتب حباً جماً ، « حتى كان يمسكها فى قماش غال إكراماً لها وصيانة » .

وهو يعتبر أول وأكبر جغرافى أنجبته الأندلس ، وعلى الرغم من أنه لم يبرح الأندلس فقد ألف عدة كتب أكبرها وأهمها هو المسمى « المسالك والممالك » ، ولم يبق منه إلا جزء عن المغرب يذكر فيه الطرق ويصف المدائن والقرى .

وقد اعتمد فى كتابه هذا على عدة كتب منها كتاب « مسالك أفريقية وممالكها » للجغرافى الأندلسى محمد بن يوسف الوراق المشهور باسم محمد التاريخى ، وعلى ما كتبه إبراهيم بن يعقوب التاجر اليهودى النخاس .

وله كتاب آخر هو « معجم ما استعجم من أسماء البلاد

والمواضع» وقد وضعه غير مفكر فى الناحية الجغرافية الخالصة ولا معنى إلا بما تحتاج إليه النصوص القديمة من ضبط وتفسير . فما أكثر أسماء الأماكن والبلاد العربية التى ترد فى الشعر والسير والحديث والتاريخ ، وما أكثر ما يقع فيها من التحريف والتصحيف والاختلاط والاختلاف ، وما أشد حاجة هذه الألفاظ إلى الضبط والتحقيق ! ومن أجل هذا ألف أبو عبيد معجمه . وقد أكبر القدماء هذا الكتاب ورجعوا إليه وانتفعوا به واعتمدوا على ما يمتاز به من الدقة والضبط . ثم عرفه المستشرقون الأوربيون فى العصر الحديث ، فنوه به بعضهم وجد فى نشره البعض الآخر .

وتوفى البكرى سنة ٣٦٣ هـ ؛ ٩٧٣ م

ابن حوقل

هو أبو القاسم محمد بن العلى الموصلى ، ولد فى بغداد ونشأ فيها وأقبل على التجول فى البلاد الإسلامية يوم انقطع المسعودى عن الارتحال .

بدأ الرحلة سنة ٣٣١ هـ ؛ ٩٤٣ م من بغداد وعاد إليها بعد ثلث قرن ، زار خلالها العالم الإسلامى من شرقيه إلى غربيه ، وتغلغل فى مناطق أخرى كثيرة عدا الصحراء التى لم يشاهد منها إلا جزءاً يسيراً حتى إنه دخل بلاد البلغار ووصل إلى أعالى نهر

القوبحا طلباً للارتزاق من التجارة ورغبة فى دراسة البلاد والشعوب .

وقد قرأ كثيراً واتصل كثيراً إذا استمر فى جولاته نحو ثلاثين عاماً ، ولقى الاصطخرى فطلب إليه أن يراجع كتابه « المسالك والممالك » ففعل ، ولم يلبث ابن حوقل أن ألف كتاباً يحمل نفس الاسم معتمداً على ما كتبه الاصطخرى .

واتصل ابن حوقل بالفاطميين ، ويذهب بعض المستشرقين إلى أنه كان يتجسس لهم فى الأندلس ، وذلك لأنهم كانوا يطمعون فى امتلاك تلك البلاد فى بداية الأمر .

ومما قاله حثاً للخليفة الفاطمى على فتحها : « ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هى فى يده ، مع صغر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص عقولهم ، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة » .

ووصف برقة بقوله : « فأما برقة فمدينة وسطة ليست بالكبيرة الفخمة ولا بالصغيرة الزرية ، وهى أول منبر ينزله القادم من مصر إلى القيروان . وبها من التجار وكثرة الغرباء ، فى كل وقت، ما لا ينقطع : طلاباً لما فيها من التجارة ، وعابرين عليها مغربين ومشرقين . وذلك أنها تتفرد فى التجارة بالقطران الذى ليس فى كثير من النواحى ، والجلود المجلوبة للدباغ بمصر ، والتمور الواصلة إليها » .

ويقول عن طرابلس : « . . . وهى مدينة بيضاء من

الصخر الأبيض على ساحل البحر ، خصبة حصينة كبيرة . . . وهى ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية ، وارتفاعها دون ارتفاع برقة فى وقتنا هذا ، وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره كالخوخ الفرسك والكمثرى اللذين لا شبه لهما بمكان . إلى مراكب تحط ليلا ونهاراً ، وترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحاً ومساء من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم ، وأهلها قوم مرموقون بنظافة الأعراض والثياب والأحوال ، متميزون بالتجمل فى اللباس ، وحسن الصور والقصد فى المعاش ، إلى مروآت ظاهرة وعشرة حسنة ورحمة مستفاضة ونيات جميلة . . . »

المقدسى

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد ، ويعرف بالمقدسى لأنه ولد فى بيت المقدس ، وعاش فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

ويعتبر المقدسى آخر الجغرافيين العرب الكبار ، وهو يمتاز عن غيره بأنه اعتمد على الرحلة والمشاهدة فى كتاباته ، كما كان دقيق الملاحظة يهتم بالتحرى والتمحيص لما ينقل .

وقد طاف المقدسى متنكراً فى بعض البلاد على ما يبدو

مستبدلا باسمه اسماً آخر ، حتّى يستطيع دراسة أية بيئة يصل إليها دون أن يثير الريبة .

وقد لاقى فى جولاته مشاق كثيرة وتعرض لاخطار عديدة وصادف مفارقات عجيبة ذكر بعضها فى قوله : « وطردت فى الليالى من المساجد وسحت فى البرارى وتهت فى الصحارى . وصدقت فى الورع زماناً ، وأكلت الحرام عياناً ، وصحبت عباد جبل لبنان ، وخالطت حيناً السلطان ، وملكت العبيد ، وحمات على رأسى بالزنبيل . وأشرفت مراراً على الغرق ، وقطع على قوافلنا الطرق ، وخدمت القضاة والكبراء ، وخاطبت السلاطين والوزراء ، وصاحبت فى الطرق الفساق ، وبعت البضائع فى الأسواق ، وسجنت فى الحبوس ، وأخذت على أنى جاسوس . . .

وكم نلت العز والرفعة ، ودبر فى قتلى غير مرة . وحججت وجاورت وغزوت . ليعلم الناظر فى كتابنا أنا لم نصنفه جزافاً ولا رتبناه مجازاً ، ويميزه من غيره ، فكم بين من قاسى هذه الأسباب ، وبين من صنف كتابه فى الرفاهية ووضعه على السماع . . »

واقتصرت جولاته على البلاد الإسلامية فى عصره ، كما أنه لم يزر الهند والأندلس ولذا لم يتعرض لهما فى كتابه .

ورسم للبلاد التى زارها خرائط ملونة قال عنها : « ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة ، وجعلنا رمالها

الذهبية بالصفرة ، وبحارها المالحة بالخضرة ، وأنهارها المعروفة بالزرقة ، وجبالها المشهورة بالغبرة ، ليقرب الوصف إلى الأفهام . »

ولم يظهر كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » إلا عندما بلغ الأربعين ، ولذلك كان نموذجاً للكتاب العلمى المرتب المنظم ويقول فى سبب تأليفه :

« أما بعد فإنه ما زالت العلماء ترغب فى تصنيف الكتب ، لئلا تدرس آثارهم ، ولا تنقطع أخبارهم ، فأحببت أن أتبع سننهم ، وأقيم علماً أحيي به ذكرى ، ونفعاً للخلق أرضى به ربى . ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم فصنفوا على الابتداء ، ثم تبعتهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه ، فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه وأنفرد بفن لم يذكروه ، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها . . . »

وكتب عما رآه فى إقليم مصر من عجائب يقول : « فيه عجائب منها الهرمان اللذان هما إحدى عجائب الدنيا من حجارة ، شبه عماريتين (هودجين) ارتفاع كل واحدة أربعمائة ذراع فى عرض مثلها ، قد ملئت بكتابة يونانية (كذا) وفى داخلهما طريقان إلى أعلاهما ، وطريق تحت الأرض . . . وسمعت فيهما أشياء مختلفة ، فمنهم من قال هما طلسمان ، ومنهم من قال كانتا أهراء (مخازن) يوسف ، وقيل بل كانت قبورهم . . . ويقال مكتوب عليهما : إنى بنيتهما فمن كان يدعى

قوة فى ملكه فليهدمهما ، فإن الهدم أيسر من البناء ، فأراد بعض الملوك هدمهما ، فإذا خراج مصر لا يقوم بهدمهما ، فتركهما . وهما أملسان ... يريان من مسيرة يومين وثلث لا يصعد فوقهما إلا كل شاطر ، وحولهما أمثالهما عدة صغار ، وهذا يدل على أنها مقابر . . . وبعين شمس شبه منارتين طويلتين ، قطعة واحدة ، على رأسهما شبه حربة ، تسميان المسلتين . . . وقرأت فى كتب الطلسمات أنهما طلسمان للتماسيح . وبالإسكندرية منارة قد أرسى أساسها فى شبه جزيرة صغيرة يدْخل إليها فى طريق ضيقة بالصخر محكمة . . . والمنارة فى جزيرة ، وفيها ثلاثمائة بيت يصعد إلى بعضها الفارس بفرسه ، وإلى كلها بدليل . . . ويقال إنه كان فيها مرآة يرَى فيها كل مركب أقلع من سواحل البحر كلها . . . »

أبو عبد الله محمد الإدريسى

ولد فى سبتة من أعمال المغرب نحو سنة ٤٩٣ هـ ؛ ١٠٩٩م من الأسرة الإدريسية التى حكمت ملقة فى المغرب الأقصى ، إذ هو حفيد إدريس الثانى الحمودى أحد أمرائها الذى ينتسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم . ولما كبر رحل إلى قرطبة لطلب العلم فى جامعتها ، ولما أتم بغيته غادرها وطاف فى الأندلس ، ثم زار شمال أفريقية وآسيا الصغرى . وسمع به الملك رجار — أو

روجيه الثانى Roger النورماندى فاستدعاه – وكان النورمان قد احتلوا صقلية وطردوا حكامها المسلمين منها إلا أنهم عاملوا من بقى بها من المسلمين بالحسنى – ولبى الإدريسى دعوته . وكان هذا الملك محباً للعلم راغباً فى نشره ، حريصاً على جمع العلماء حوله والعطف عليهم ، فدخل الإدريسى فى زمرة المقربين إليه ، وسرعان ما أدرك الملك عظم فضله؛ فأغدق عليه النعم رغبة فى الإفادة من علمه.

وبقى عنده مدة طويلة ألف فى أثنائها كتابه المشهور فى الجغرافيا ، المسمى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ويعرف أيضاً باسم « كتاب رجار » أو « الكتاب الرجارى » – نسبة إلى روجر –

وقد ذكر الإدريسى فى مقدمة الكتاب السبب فى تأليفه ، فهو يقول : « فلما اتسع سلطانه (أى سلطان رجار) أراد أن يعرف كيفية بلاده ويعلم أشكالها وحدودها ومساكنها براً وبحراً ، فطلب الكتب التى ألفت فى الجغرافية والأقاليم ، فلم يجد ذلك مشروحاً فيها مفصلا . فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم فلم يجد عندهم أكثر مما فى الكتب . فبعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين فيها فسألهم عنها وباحثهم فيها ، فما اتفق عليه فيه رأيهم وصح عندهم نقله أبقاه ، وما اختلفوا فيه أرجأه . وأقام فى ذلك خمس عشرة سنة . . . فلما تم كل شىء أمر أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة (كرة) عظيمة

الجرم ضخمة الجسم فى وزن ٤٠٠ رطل . ثم أمر الفعلة أن ينقشوا عليها صورة الأقاليم السبعة ببلادها وأطوالها وأقطارها وسبلها وريفها وخلجانها وبحارها ومجاريها ونوابع أنهارها وغامرها وعامرها ، وما بين كل بلد وغيره من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات والمراسى المعروفة ، ولا يغادروا فيها شيئاً . »

ثم طلب إلى الإدريسى أن يؤلف له كتاباً يصف فيه الكرة الأرضية الفضية فوضع له الكتاب الذى أشرنا إليه ، ومما يؤسف له أن الكرة فقدت بعد وفاة روجر .

وكان كتاب الشريف الإدريسى المعول عليه فى الدراسات الجغرافية فى ذلك الوقت ولمدة طويلة فيما بعد . ذلك لأنه استعان فيه بما قام به من رحلات وبما وقف عليه ممن استحضرهم روجر .

وكانت خريطة الإدريسى الدستور المتبع فى رسم الخرائط فحاكاها ونقل عنها رسامو الخرائط . وتبين أن الإدريسى كان واقفاً تمام الوقوف على منابع النيل ، لأنه صورها على شكل بحيرات كما أثبت الاكتشاف الجغرافى فيما بعد عن بحيرتى « فيكتوريا » و « ألبرت » .

وقد تناول فى كتابه ما فى النيل عند بلاد النوبة من تماسيح وأسماك وما بالسودان من فواكه ونباتات .

وهو يمتاز على من سبقه من الجغرافيين المسلمين بما كتبه عن أوربا ، بفضل ما حصل عليه من الرواد الذين بعث بهم

روجر إلى أقصى أطراف أوربا كإسكنديناوه (السويد والنرويج وفنلندة) ولهذا نجد من جاء بعده من الجغرافيين العرب ينقل عنه ما كتبه فى هذا الموضوع .

أما ما أورده عن البلاد الشرقية فكان أغلبه نقلا عمن سبقوه من الجغرافيين مضافاً إليه مشاهداته الخاصة .

وهو يعنى بالجغرافيا البشرية وعادات الأهالى فيسب فى ذكرها .

وقد بذل المجمع العلمى العراقى عناية خاصة بخريطة الإدريسى ، فاعتمد خريطة « ميلر » وقابلها بالخرائط العربية فى نسخ الكتاب ، وأخرج من كل ذلك خريطة عربية بطول مترين وعرض متر فى سنة ١٩٥١ . والعلامة الألمانى ميلر هو الذى استخرج خريطة الإدريسى ونشرها بالحروف اللاتينية ، وطبعت الخريطة طبعة ملونة متقنة فى سنة ١٩٣١ .

وقسم الإدريسى العالم المعروف من جهة الطول ، فجعل كل إقليم مقسماً عشرة أقسام متساوية من الغرب إلى الشرق ، كما هى الحال فى درجات الطول المعروفة فى الجغرافية الحديثة . ثم إنه جعل لكل قسم من هذه الأقسام السبعين خريطة خاصة ، عدا الخريطة العالمية الجامعة : وهذه الخرائط السبعون محفوظة فى نسخ كتاب الإدريسى ، ومنها استخرج ميلر خريطته المعروفة .

ومما يجب ذكره أن الإدريسى وصف ما وصف من البلاد

والأمصار بعد مشاهدة وعيان . فقد زار إسبانيا ومراكش وآسيا الصغرى وطوف فى أنحاء آسيا ، ويظن بعضهم أنه زار سواحل إنجلترا وفرنسا . وكان العرب فى ذلك الزمان وقبله ينظرون إلى البحر الأطلنطى على أنه بحر ملئ بالخبايا الرهيبة ، وقد سموه بحر الظلمات لاعتقادهم أنه ليس وراءه إلا الظلام الدامس . وأخذ الإدريسى بهذه الفكرة ، ولذلك نجده يكتب عن رحلة قام بها جماعة من لشبونة وركبوا بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه فيسميهم بالمغرورين ، وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى الفصل الخاص بالعرب وكشف أفريقية .

وللإدريسى كتب أخرى منها « أنس المهج وروض الفرج » وفيه سلك مسلكاً جديداً ، إذ وصف فيه بعض بلاد أوربا وجبالها وأنهارها وصفاً مفصلا ، وكان هذا الكتاب مدار علم العرب بمعرفة الغرب .

وله كتاب سماه « روض الأنس ونزهة النفس » — أو كتاب « الممالك والمسالك » — ألفه لغليوم الأول الذى خلف روجر بعد وفاته سنة ٥٤٨ هـ ؛ سنة ١١٥٣ م ووجدت خلاصات منه فى مكتبة بإستانبول :

وله خلاصة لكتاب « نزهة المشتاق » وقد طبعت منه أجزاء فى أماكن مختلفة وعلى أيدى بعض المستشرقين .

كما ترجم الكتاب إلى بعض اللغات ، منها ترجمة باللاتينية والإسبانية .

وهذه العناية العظيمة التى بذلها العلماء فى أوربا بكتاب الشريف الإدريسى تدل دلالة واضحة على عظمته وعلى أنه من أدق المؤلفات وأتقنها ، لذلك لم يكن غريباً أن يطلق على الإدريسى « استرابون العرب » .

وتوفى الإدريسى سنة ٥٦٢ هـ ؛ سنة ١١٦٦ م .

ناصرى خسرو

فارسى الأصل ولد فى بلدة من أعمال بلخ سنة ٣٩٤ هـ؛ سنة ١٠٠٣ م ، ونال حظاً وافراً من معارف عصره وقام فى شبابه بجولات فى إيران وتركستان والهند والجزيرة العربية ثم اشتغل وزيراً لدى السلاجقة ، ومر به حين من الدهر عاش خلاله عيشة ترف وبطالة حتى سنة ٤٣٧ هـ ؛ ١٠٤٥ م إذ ضحى بمنصبه وبدأ حياة جديدة كلها تقوى وعلم وسفر ،

بدأ من مرو ، فمر بنيسابور والرى وتبريز ، ثم دخل بلاد الشام وزار أمهات مدنها ثم حج إلى مكة وعاد إلى القدس ، وسافر إلى مصر ثم حج ثانية وعاد ، وظل فى بلاط الخليفة المستنصر الفاطمى سنتين إلى أن غادر القاهرة سنة ٤٤١ هـ ؛ سنة ١٠٥٠ م إلى جدة . وبعد أن حج للمرة الأخيرة عاد إلى بلاده ؟ . . وفى مصر اتصل ببعض رؤساء الشيعة الإسماعيلية فتحول إلى مذهبهم ، وكلفه الخليفة المستنصر أن يدعو لمذهب

الإسماعيلية فى خراسان ولكن حكامها وقفوا على ما يقوم به فاضطهدوه واضطروه إلى مغادرة البلاد ، فقصد إلى بلاد ما وراء النهر حيث توفى سنة ٤٥٣ هـ ؛ سنة ١٠٦١ م .

كان ناصرى خسرو دقيق الملاحظة يتقصى الأخبار ورواياتها ، فجاءت رحلته المعروفة باسم « سفرنامه » Safar Naméh أو « زاد المسافر » وصفاً دقيقاً للحالة الاجتماعية والاقتصادية قبيل مجىء الصليبيين إلى سورية .

أما وصفه للقدس وللحرم الشريف بها فمن أدق ما وصل إلينا ، إذ أنه ضبط أبعاد المسجد الأقصى وقياساته . وفى القدس عنى ناصرى خسرو ، بزيارة الأماكن المقدسة كلها ، ونوه بنشاط أهلها فى استغلال أراضيهم الزراعية واهتمامهم بزراعة الزيتون ، كما تحدث عن استغلالهم للبحر الميت وقال : « إن القار المجموع من مياه البحر الميت يستعمل فى طلاء الأجزاء السفلى من الأشجار لحفظها من الديدان ويستعملها الصيادلة للمحافظة على العقاقير من الحشرات » .

وكذلك وصفه لمصر فهو من خير ما وصل إلينا ، أخذه عنه من أتى بعده من المؤرخين . وقد تناول فيه القاهرة والبلاط الفاطمى والإدارة الحكومية فى زمن المستنصر بالتفصيل . كما يتحدث عن الحياة الاجتماعية والاحتفالات العامة وذكر ما بالقاهرة من دور العلم والحمامات والأسواق والمساجد ودور الصناعة وغير ذلك .

كما ذكر قصصاً تشهد بالتسامح الديني الذى عرف عن العصر الفاطمى ، وباطمئنان المسيحيين واليهود إلى عدل الخليفة وحكومته .

ولما غادر القاهرة عائداً إلى بلاده مر بأسيوط ونوه بصنع القماش واستخراج الأفيون فيها .

وقد خص ناصرى خسر مكة المكرمة ومناسك الحج ومشاعره فيها بقسط كبير من جهده ووقته ، وأعجب بنظام الحكومة القرمطية فى إقليم الأحساء بالجزيرة العربية ، وذكر أنه إذا أعسر أحد السكان فيه أقرضوه مالا يستعين به على تدبير موره ، وأن الذى يستدين شيئاً لا يطالب بدفع ربح عنه ، وأن الغريب الذى يحسن إحدى الحرف يقرض عند وصوله إلى هذا الإقليم مبلغاً من المال يستعين به على شراء عدده . وإذا تهدمت دار أو مطحنة ، وعجز صاحبها عن إصلاحها ، فإن حكام الإقليم ينيطون ببعض عبيدهم إتمام هذا الإصلاح من غير أجر . وللحكومة فى الأحساء مطاحن تنفق عليها ويطحن الناس فيها قمحهم بالمجان . وقد سجل ناصرى إعجابه بهذه النظم التى تذكرنا الآن ببعض الاتجاهات الاشتراكية فى العصور القديمة وفى العصر الحديث .

أما البصرة فقال عنها : إن هذه المدينة كانت تقوم فى أنحائها ثلاثة أسواق فى اليوم الواحد ، وأن رواد تلك الأسواق كانوا يودعون أموالهم عند أصحاب المصارف المالية ويأخذون منهم

إقراراً باستلامها ثم يدفعون قيمة كل ما يشترونه « شيكاً » أو « إذناً » يقبض البائع قيمته من صاحب المصرف . وهكذا لا يستعمل التجار النقود فى معاملتهم وإنما يستخدمون « الشيكات » أو « أذونات الصرف » يدفع قيمتها أصحاب المصارف .

ومن البصرة عاد إلى مرو ، فلما اشتد السلاجقة فى طلبه اختفى بجبال خراسان حتى مات سنة ٤٥٢ هـ ؛ ١٠٦٠ م .

أبو حامد الغرناطى

هو محمد بن عبد الرحمن بن سليمان القيسى الأندلسى . ولد فى غرناطة سنة ٤٧٣ هـ؛ سنة ١٠٨٠ م، وقد مال منذ شبابه للأسفار فزار إفريقية الشمالية وصقلية سنة ٥١١ هـ ؛ سنة ١١١٧ م، ثم ذهب إلى مصر وبعد أن قضى بها زمناً غادرها إلى بلاد الشام فالعراق ثم اتجه ناحية الخزر (قزوين) ووصل إلى ضفاف نهر الفولجا وطاف ببلاد الخزر والبلغار ثم زار القسطنطينية . وقد دون كل مشاهداته فى كتابه « تحفة الأصحاب ونخبة الإعجاب» ،

وله كتاب جغرافى يسمى « تحفة الكبار فى أسفار البحار». وفى بغداد أقام ردحاً من الزمن ألف فيه كتاب « المعرب عن عجائب المغرب »

ومما جاء فى كتاباته عن سبب دخول الإسلام فى بلاد

البلغار أن مسلماً يشتغل بالطب قصد إلى تلك البلاد ، واتفق أن كان ملكها وزوجه مريضين مرضاً مستعصياً فعرض عليهما الإسلام إن هو شفاهما من مرضهما فوعداه بتلبية ما عرضه ، فعالجهما ودخلا فى الإسلام ومعهما أغلب سكان تلك البلاد .

ومن الأحاديث الغريبة التى سمع بها فى بلاد البلغار حديث السمكة « التى ثقبوا أذنها ، وجعلوا فيه حبالا ، وجرّوا تلك السمكة ، فانفتح أذنها ، فخرجت من داخلها جارية تشبه الآدمية ، بيضاء حمراء الخدين ، سوداء الشعر ، من أحسن النساء ، فأخذها أهل « يورا » وأخرجوها إلى البر ، وتلك الصورة تضرب وجهها وتنتف شعرها وتصيح ، وقد خلق الله لها فى وسطها مثل جلد أبيض ، كالثوب الصفيق القوى ، من وسطها إلى ركبتيها يستر عورتها ، كأنه إزار مشدود على وسطها ، فأمسكوها حتى ماتت عندهم ، وقدرة الله تعالى لا نهاية لها . . .

ويظهر من هذا ميله لرواية كل ما يسمعه وعدم تناوله إياه بالنقد .

وتوفى فى دمشق سنة ٥٦٥ هـ ؛ سنة ١١٦٩ م .

الهروى

هو على بن أبى بكر ، وقيل أبى طالب . أصل أسرته من هراة لكنه ولد فى الموصل وطاف فى بلاد الشام والعراق واليمن والحجاز ومصر وبلاد الروم وصقلية وغيرها من جزر البحر المتوسط ، وزار القسطنطينية فى زمن الإمبراطور عمانوئيل كومنينوس (١١٤٣ — ١١٨٠)م ، وزار دمشق سنة ٥٦٨ه؛ وهبط الإسكندرية سنة ٥٧٠ ه ؛سنة ١١٧٤م،وحمله القائد أبو القاسم بن حمود رسائل إلى صلاح الدين يطلب فيها تجهيز حملة ضد صقلية . وكان الهروى فى القافلة التى نهبها ريتشارد (قلب الأسد) فى جنوب فلسطين سنة ٥٨٨ ه ؛ ١١٩٢ م ففقد فيها كتبه وبعض ما جمعه من مذكرات ، وطلب ريتشارد الهروى ليقابله فرفض لحنقه على ما جرى له على يد الصليبيين . ثم قصد إلى دمشق فحلب حيث قضى أيامه الأخيرة فى ظل الملك الظاهر بن صلاح الدين الذى قربه إليه وشمله برعايته وبنى له مدرسة بظاهر حلب حيث توفى سنة ٦١١ ه ؛ ١٢١٤م ، وقد دفن بتلك المدرسة .

وقد ألف الهروى بضعة كتب لم يصل إلينا منها سوى كتاب « الإشارات إلى معرفة الزيارات » وهو يتناول الآثار والعمائر الدينية التى زارها .

ومما كتبه عن زيارته لمصر قوله عن الأهرام :

« الأهرام من عجائب الدنيا ، وليس على وجه الأرض شرقيها وغربيها عمارة أعجب منها و أعظم و أرفع ، ورأيت بمصر أهراماً كثيرة منها خمسة كبار والباقى صغار . فأما الكبار فاثنان عند الجيزة واثنان عند قرية يقال لها دهشور ، وهرم عند قرية يقال لها ميدوم . وقد اختلفت أقاويل الناس فيها وفى بانيها وما يريد بها ، فمنهم من قال إنها قبور للملوك ، ومنهم من قال إنهم عملوها خوفاً من الطوفان ، وقيل إن المأمون فتح هرماً منها ، وهو أحد الهرمين اللذين عند الجيزة ؛ فوجدوا داخله بئراً مربعة ، فى تربيعها أبواب يفضى كل باب منها إلى بيت فيه موتى بأكفانهم ، وقيل إنهم وجدوا فى رأس هذا الهرم بيتاً فيه حوض من الصخر على مثال القبر ، وفيه صنم كالآدمى ، وفى وسطه إنسانٌ عليه درع من الذهب مرصع بالجوهر ، وعلى صدره سيف لا قيمة له وعند رأسه حجر ياقوت كالبيضة ضوؤه كالنار » .

ومما ذكره عن الأقصر أنها « مدينة بها من الآثار والقصور والأصنام وصور السباع والدواب ما لم أر مثله فى بلاد الصعيد ولا فى غيرها ، وذرعت يد صنم فكان من المرفق إلى مفصل الكف سبعة أذرع » .

ومن طريف ما يروى عنه ما ذكره ابن خلكان إذ قال إنه « لم يصل إلى موضع إلا كتب خطه فى حائطه » .

ابن جبير

كان جالساً فى حجرته يقرأ عندما دخل عليه خادمه وقال له إن رسولا من قبل أمير غرناطة جاء ليبلغه بالتوجه فوراً إلى بيت الأمير . . ليكتب له كتابا .

ولم يقلق ابن جبير فقد كانت تربطه بالأمير صداقة وطيدة . .

ودخل ابن جبير على الأمير فوجده يتناول الشراب ، ومد الأمير يده إليه بكأس فأظهر ابن جبير الانقباض وقال : « يا سيدى ما شربتها قط » ، غير أن الأمير غضب وقال : « والله لتشربن منها سبعا ! » فلما رأى ابن جبير إصراره استسلم وشرب الكؤوس السبع . . وأحس الأمير بشيء من الندم ، أو لعله أراد أن يكافئ ضيفه على مجاملته له ، فملأ الكأس سبع مرات بالدنانير الذهبية وأفرغها فى حجره ، فحملها ابن جبير إلى منزله واعتزم أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير .

وباع ابن جبير بعض ما يملك وأضاف ثمنه إلى عطية الأمير .

وما هى إلا أيام حتى استأذن من الأمير فى الحج ، ولكيلا يمنعه من السفر أبلغه أنه أقسم قسما لا رجوع فيه أن يحج فى تلك السنة فأذن له .

وكانت مصر يومئذ تحت حكم صلاح الدين ، الذى لم يلبث بعد قليل أن هب ليوحد كلمة العرب ويحمل عبء حماية البلاد العربية من اعتداءات الأوربيين المتوالية ، التى عرفت باسم الحملات الصليبية والتى ساهم فى رد بعضها ، عندما أغار الصليبيون على الإسكندرية سنة ١١٦٧ م وعلى دمياط سنة ١١٦٩ م .

ولد أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكنانى ، فى بلنسية Valencla فى العاشر من ربيع الأول ٥٤٠ هـ ١١٤٥ م . وقد درس الفقه والحديث ، والشعر والأدب ، حتى أصبح عالماً فاضلا ، وأديباً بارعاً ، وشاعراً مجيدا .

ثم استوطن غرناطة Grenada ، وهناك توثقت صلته بأميرها ، فلما وقعت حادثة الشراب خرج إلى الحج ، سنة ٥٧٨ هـ سنة ١١٨٢ م . فذهب إلى سبتة ومنها إلى سردينيا حيث رأى أسرى المسلمين العرب يباعون فى سوق العبيد فأحس بالألم الشديد وأدرك أن ما أصاب هؤلاء البؤساء إنما هو نتيجة تفكك العالم العربى يومئذ ، ولذلك اتجه إلى تسجيل كل مشاهداته ليقف عليها العرب وليعلموا إلى أى مدى يجب أن تتحد كلمتهم ، وأن يصلحوا أحوالهم حتى يستطيعوا مواجهة الخطر الإفرنجى .

وأخيرا وصلت سفينته إلى الإسكندرية . ثم دخل المدينة ، ولما رأى منارة الإسكندرية الشاهقة الارتفاع جذبت انتباهه . كما وقف طويلا عند بعض آثارها ، و بعد ثمانية أيام غادر

الإسكندرية إلى القاهرة حيث زار القلعة أثناء بنائها ، وذكر أن صلاح الدين يعتزم إقامة سور عظيم يحيط بالقاهرة ومصر القديمة .

ثم يقصد إلى الجيزة وتدهشه الأهرامات ، ويستمع إلى رأى الناس فى أمر بنائها فمنهم من يجعلها قبوراً لعاد وبنيه ومنهم من يزعم غير ذلك ، وبالجملة فلا يعلم شأنها إلا الله عز وجل . . وعلى مقربة من هذه الأهرامات صورة من حجر ، قد قامت كالصومعة على صفة آدمى هائل المنظر (أبو الهول) .

ويتجه بعد ذلك إلى أسيوط فيعجب بجمال مناظرها . . ثم يمر بقنا ويعجب بنسائها لأنهن لا يغادرن بيوتهن . . ثم يصل إلى بلدة قوص ، وعندها يجتاز الصحراء الشرقية إلى البحر الأحمر ليستقل من ميناء عيذاب سفينة إلى جدة . وعندما يصل إلى جدة ينزل ضيفا على قائد من قبل أمير مكة اسمه مكثر بن عيسى ، ولكنه يستنكر معاملة أهل جدة للحجاج ويقول : « لقد صيروا الحجاج من أعظم غلاتهم التى يستغلونها ، ينتهبونهم انتهابا ، فالحاج لا يزال فى غرامة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه» .

وأخيرا يصل إلى مكة فيؤدى فريضة الحج . . ثم يسافر إلى المدينة ويزور قبر النبى ويصفه وصفاً تفصيليا ، ويواصل بعدئذ سفره إلى الكوفة فبغداد وهناك يرى القار أحد منتجات النفط (البترول) لأول مرة يستعمل فى طلاء جدران حماماتها

حتى ليخيل للناظر أنه رخام أسود صقيل وتدهشه فيها كثرة المساجد والمدارس .

ثم يغادر بغداد إلى الموصل ، ويمر بمدينة « سر من رأى » فيرثى لحالها ثم يمر بموقع يعرف بالقيارة وفيه يرى القار — أو البترول — فى « وهدة من الأرض سوداء كأنها سحابة ، قد أخرج الله منها عيونا كبارا وصغارا تنبع بالقار ، وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنها الغليان . ويصنع له أحواض يجتمع فيها فتراه شبه الصلصال منبسطا على الأرض أسود أملس ، صقيلا رطبا ، عطر الرائحة ، شديد التعلك فيلصق بالأصابع لأول مباشرة من اللمس . وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود ، تقذفه إلى جوانبها فيرسب قارا ، فشاهدنا عجبا كنا نسمع به فنستغرب سماعه . وبمقربة من هذه العيون على شط دجلة ، عين أخرى منه كبيرة أبصرنا على البعد منها دخانا فقيل لنا : إن النار تشتعل فيه إذا أرادوا نقله ، فتنشف النار رطوبته المائية وتعقده فيقطرونه قطرات ويحملونه . وهو يعم جميع البلاد إلى الشام ، إلى عكة ، إلى جميع البلاد البحرية » .

ويصف الجامع الأموى وصفاً تفصيليا ويذكر كيفية بنائه .

وبعد أن يغادر دمشق إلى عكا « قاعدة مدن الإفرنج بالشام ، ومحط الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ». مرفأ

كل سفينة ، والمشبه فى عظمتها بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق » .

ورأى بعينيه الفظائع التى يعانيها الأسرى المسلمون ، فهم « يرسفون فى القيود ويصرفون فى الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والأسيرات المسلمات كذلك فى سيقانهن خلاخيل الحديد » . وهنا ينوه بما اعتاده مسلمو الشام من البذل لافتداء أسرى المغاربة .

ثم يبحر إلى صقلية وأخيراً يعود إلى غرناطة وهذه الرحلة ، هى التى يصفها لنا فى كتابه المشهور « برحلة ابن جبير » .

ثم يقوم برحلة أخرى عندما يبلغه نبأ فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين ، وقد استمرت تلك الرحلة من سنة ٥٨٥ هـ إلى سنة ٥٨٧ هـ . وقد عاش بعد ذلك فى مالقة (شرق جبل طاوق)ثم فى سبتة وفاس .

أما رحلته الثالثة والأخيرة فقد بدأها من سبتة سنة ٦٠١ هـ ، وفى هذه المرة مكث بمكة زمنا طويلا ثم بالقدس فالإسكندرية حيث توفى بها ، فى ٢٧ شعبان سنة ٦١٤ هـ سنة ١٢١٧ م .

وكان ابن جبير مشتغلا بدراسة الحديث وتدريسه ، فلا غرو أن رأيناه حريصا على مقابلة أقرانه من المحدثين ، خلال رحلاته الطويلة . ولكننا نستخلص مما نقرأه فى رحلته أنه كان واسع الاطلاع ، فى مناحى أخرى .

ولعل أشهر خلال ابن جبير كلها حسن نكتته ولطافة دعابته .

عاش ابن جبير فى وقت كانت فيه الخصومة السياسية بين العرب وأوربا فى إبانها ، فلا غرو أن رأيناه أحيانا يصب جام خصومته وغضبه على أعداء العرب ، ولكنه فى الوقت ذاته كان يظهر تسامحا صادقا عجيبا ، كما يبدو ذلك من سفره على سفن الفرنجة ، أثناء عودته إلى بلاده ، ومن انضمامه إلى قافلة من تجار الفرنجة فى سفره من دمشق إلى عكا ، ومن ثنائه على ما كان لوليم الثانى ملك صقلية من ميل إلى المسلمين .

وقد تداول قراء العربية رحلة ابن جبير منذ نحو سبعين عاما ، وقام الأستاذ رايت Wright أحد أساتذة جامعة كمبردج بإصدار طبعة جيدة منها ، وفى سنة ١٩٥٥ أصدر منها الدكتور حسين نصار الأستاذ بجامعة القاهرة طبعة محققة مشكولة .

ياقوت الحموى

هو الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى .

ولد فى بلاد الروم (الأناضول الحالية) ومن هنا تسميته أحيانا بالرومى فى سنة ٥٧٥ هـ ؛ سنة ١١٧٩ م . وقد أسر وهو

صغير وبيع لتاجر حموى كان يقيم فى بغداد فنسب ياقوت إليه وغلب عليه لقب الحموى . ورأى التاجر أن يفيد من هذا الحدث النابه ليستعين به فى حساباته فأدخله مدرسة يتعلم فيها الكتابة إلا أن ياقوت توسع فى دراسته واهتم بالنحو والأدب . وأرسله سيده فى تجارات له فى الخليج العربى وعمان والشام ، فأغرم ياقوت بالرحلة .

ثم أعتقه سيده سنة ٥٩٦ هـ ؛ سنة ١١٩٩ م . ولم يلبث أن دب بينهما خلاف ، فتعاطى ياقوت نسخ الكتب ليعيش منه . وقد أفاد من ذلك كثيرا ، إذ هيأ له الاتصال بعدد من الأدباء والرواة . ثم عاد الود بينه وبين سيده القديم إلى ما كان عليه ، فاستأنف ياقوت أسفاره التجارية ، وعند عودته وجد أن سيده قد مات بعد أن أوصى له ببعض ثروته . فاشتغل ياقوت بتجارة الكتب ، ولكنه اشتاق إلى الأسفار والتنقلات ، فأخذ يتجول فى فارس والجزيرة العربية وآسيا الصغرى ومصر والشام ، وحيثما حل كان يلتهم ما فى خزائن البلاد من الكتب . وفى مرو بدأ بوضع كتابه « معجم البلدان » ، ثم رحل إلى خوارزم حيث استقر بعض الوقت ، فلما علم بتحرك جنكيزخان نحو الغرب هرب إلى الموصل . ومنها كتب إلى الوزير ابن القفطى ، فى حلب ، يرجوه العون ، فأمده بما قوم به أوده واستدعاه إلى حلب . لكن ياقوت عاد بعد سنتين إلى الموصل ، حيث انصرف إلى إتمام معجمه الذى فرغ من وضعه فى سنة ٦٢١ هـ ؛

سنة ١٢٢٤ م . ثم زار مصر . وعاد إلى حلب فعمل فى تنقيح المعجم ، وتوفى فيها فى رمضان سنة ٦٢٦ هـ : آب ـ أغسطس سنة ١٢٢٩ م .

وقد دفع ياقوت إلى وضع معجمه ما حدث له فى مرو عندما ثارت مناقشة تتعلق بتشكيل اسم مكان ، فأدرك حاجة المؤلفين إلى « كتاب فى هذا الشأن مضبوطا ، وبالإتقان وتصحيح الألفاظ بالتقييد محظوطا ، ليكون فى مثل هذه الظلمة هاديا ، وإلى ضوء الصواب داعياً .

ولذلك بادر إلى وضع معجمه مرتبا على حروف الهجاء ، ومهد له بخمسة فصول تتناول صورة الأرض ، ومعنى الإقليم ، وبعض الاصطلاحات الجغرافية مثل : البريد والفرسخ ، والطول والعرض إلى غير ذلك . وضبط الأسماء وأشار إلى كل من دفن فى كل بلد من الصحابة والعلماء والأعيان . كما دوّن أخبار بعض الرحالة كابن فضلان .

وأصبح معجم ياقوت موسوعة جغرافية لا غنى عنها ، ولما أتمه شعر بما بذل فيه من جهد مضن ولذلك يتحدث عنه بقوله : « وعلى ذلك فإننى أقول ولا أحتشم ، وأدعو إلى النزال كل عالم فى العالم ولا أنهزم : إن كتابى هذا أوحد فى بابه ، مؤمر على أضرابه ، لا يقوم بإبراز مثله إلا من أيد بالتوفيق ، وركب فى طلب فوائده كل طريق ، فغار تارة وأنجد ، وطوح لأجله بنفسه فأبعد ، وتفرغ له فى عصر الشبيبة وحرارته ، وساعده

العمر بامتداده وكفايته ، وظهرت منه أمارات الحرص وحركته » .

وامتاز ياقوت عن كثير ممن سبقوه بعدم الأخذ بالخرافات والأساطير . وذكر ياقوت أن البعض طلب إليه اختصار معجمه فأبى ، وناشد ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه عدم اختصاره .

ومما قاله « أن المختصر لكتاب كمن أقدم على خلق سوى ، فقطع أطرافه فتركه أشل اليدين ، أبتر الرجلين ، أعمى العينين ، أصلم الأذنين » .

ولكن وصيته لم ترع ، على الرغم من هذا الرجاء الحار . فقد اختصره صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق فى كتاب سماه « مراصد الاطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع » ، كما أن السيوطى لخصه فى كتابه « مختصر معجم البلدان » .

ولياقوت مؤلفات أخرى غير معجم البلدان أهمها « معجم الأدباء » المسمى « إرشاد اللبيب إلى معرفة الأديب » ، وهو يتضمن معلومات جغرافية إلى جانب المعلومات الأدبية . وتوفى عام ٦٢٧ هـ : ١٢٢٩ م .

عبد اللطيف البغدادى

هو موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف ، موصلى الأصل ، بغدادى المولد .

ولد سنة ٥٥٧ هـ ؛ سنة ١١٦٢ م ببغداد فى أسرة اشتهر أفرادها بالعلم ، ولذا انكب منذ صغره على إجادة الخط وحفظ القرآن والشعر ؛ وتلقى جانباً كبيراً من كل ذلك على بعض أفراد أسرته ، وعلى بعض شيوخ بغداد .

ثم انتقل إلى الموصل ، وهناك علم بما يلقاه العلماء من رعاية فى كنف صلاح الدين فقصد إلى دمشق ، وكانت سورية ومصر يومئذ تحت حكم صلاح الدين . ثم توجه إلى القدس فعكا ، حيث التقى ببعض رجال صلاح الدين ومنهم القاضى الفاضل الذى زوده بوصية إلى نائب صلاح الدين فى مصر . ولكن إقامته لم تطل بها إذ عاد إلى القدس لما علم بمهادنة صلاح الدين للصليبيين ، وهناك قابله ولقى منه كل تقدير ، إذ قرر له ثلاثين ديناراً كل شهر كما قرر له أبناء صلاح الدين رواتب أخرى ، وطلب إليه أن يتجه إلى دمشق ليدرس للناس .

وبعد قليل مات صلاح الدين ، فرحل البغدادى إلى مصر حيث أقام زمنا يدرس بالأزهر وشهد فترة الغلاء والأوبئة .

ووضع أهم مؤلفاته وهو « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » ، وفيه وصف رحلته إلى مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى وتناول مختلف شئونها وتعرض لما ضمته من آثار كالأهرام وأبى الهول ومنارة الإسكندرية وعمود السوارى .

وقد أعجب البغدادى ببناء الهرم وتحدث عنها بقوله :

« والعجب فى وضع الحجر بهندام ليس فى الإمكان أصبح منه ، بحيث لا تجد بينهما مدخل إبرة ولا خلل شعرة ، وبينهما طين كأنه الورقة لا أدرى ما صفته ولا ما هو . وعلى تلك الحجارات كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرفه » .

ثم روى بعدئذ محاولة الملك العزيز بن يوسف هدم الهرم الثالث وفشل هذه المحاولة .

ومما يدل على نزعته إلى التحقيق والتوفيق أنه سمع أن قوما اعتادوا ارتقاء الهرم دون عناء ، فاستدعى أحدهم وطلب إليه أن يصعد إلى قمته وأن يقيس أبعاده عندها ، فلما أبلغه إياها شك فى صحتها واعتزم القيام بذلك بنفسه .

وذكر ما جرت به العادة من تكسير التماثيل وتخريب الآثار وفتح المقابر بحثا عن الكنوز والذهب المدفون مع الموتى .

أما وصفه للقحط فهو وصف تقشعر له الأبدان ، إذ وصلت الحالة بالفقراء إلى أكل لحم الميتة والكلاب ، ثم انتهوا إلى أكل من يتخطفونه من الآدميين وبالأخص البدينين والصغار . ومما رواه أنه شاهد بنفسه طفلا صغيرا مشويا فى قفة وقد أحضر إلى دار الوالى ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر الوالى بإحراقهما . وروى كذلك أن الناس كانوا يتفننون فى اصطياد بعضهم بعضا ، وخاصة المشتغلين بالطب إذ كانوا يستدعونهم بزعم علاج مرضى ثم يفتكون بهم . كما تناول وصف ما أصاب

البلاد من أوبئة وروى فى هذا الصدد قصصا محزنة .

ثم قصد بعدئذ إلى القدس فأقام بها مدة ، وكان يتردد إلى الجامع الأقصى ويدرس فيه . ثم اتجه إلى دمشق مرة أخرى ونزل بالمدرسة العزيزية سنة ٦٠٤ ﻫ وهناك ظهر نبوغه فى الطب . ثم سافر إلى حلب ومنها إلى بلاد الروم فأقام فيها زمنا ، ثم عاد إلى حلب . ثم خطر له بعدئذ أن يحج وأن يمر ببغداد فى طريقه إلى مكة ليقدم للخليفة المستنصر شيئا من تصانيفه ، ولكنه مرض عقب وصوله إلى بغداد — بعد أن غاب عنها نحو خمسة وأربعين عاما — وتوفى بها فى المحرم سنة ٦٢٩ ﻫ : سنة ١٢٣١ م .

ابن سعيد

هو أبو الحسن على بن سعيد المغربى . ولد بغرناطة سنة ٦١٠ ﻫ ؛ سنة ١٢١٤ م فى أسرة كريمة ، وكان جده وأبوه من أهل الأدب والتأليف ، فقد بدأ جده « كتاب المغرب فى حلى المغرب » وعمل فيه أبوه وأتمه هو .

تلقى العلم فى إشبيلية ، ثم عمل لابن جامع وزير الموحدين بأفريقية ، غير أنه وقعت فرقة بين ابن سعيد وأحد أقربائه المشتغلين فى خدمة ذلك الوزير فخشى ابن سعيد نتائجها ، واستأذن للحج . فلما وصل الإسكندرية وكان والده قد رحل

إليها وأقام فيها — أدى معه فريضة الحج ، ولكن الأب توفى أثناء العودة وأقام الابن بمصر .

وحدث أن جاء مصر رسول من الملك الناصر لزيارة مصر فى مهمة كلفه بها مليكه ، فتعرف ابن سعيد إليه ، فأكرمه وحبب إليه الرحلة إلى حلب ليغترف مما فى خزائنها من كتب . فلما وصل إليها دخل على الملك الناصر فأنشده قصيدة أعجبته فأقبل عليه وقدم له ما استطاع من مساعدات وأغدق عليه الخلع والأموال .

ثم قصد دمشق فالموصل وبغداد ، فالبصرة وحج وعاد إلى المغرب فنزل بتونس واتصل بخدمة الأمير أبى عبد الله المستنصر .

ثم قصد دمشق واستقر بها حيث أدركته المنية سنة ٦٨٥ هـ ؛ سنة ١٢٧٤ م .

ومؤلفات ابن سعيد كثيرة منها « المقتطف من أزاهير الطرف » و « الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد » (أى تاريخ أسرته وبلده) ، و « المشرق فى حلى المشرق » ثم « المغرب فى حلى المغرب » وهو الذى أتم تأليفه .

والكتابان الأخيران يجمعهما « كتاب فلك الأرب المحيط بحلى لسان العرب » ، وقد مهد لهما بمقدمة جغرافية عامة تعرف باسم « فلك الأرب» . وكلا الكتابين تناول ذكر البلاد وأقسامها ومدنها ، وأهم أبوابه القسم الخاص بالأندلس والذى يسمى « وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس » .

وضع ابن سعيد كذلك مختصراً بلجغرافية بطايموس اعتمد عليه أبو الفدا فى جغرافيته ، كما وضع كتابا آخر عن رحلته إلى مكة هو « النفحة المسكية فى الرحلة المكية » .

ويؤخذ على ابن سعيد أنه خلط بين الأقاليم ، وفى بعض الأحيان يشوب أوصافه الخطأ . وقد وثق به أبو الفدا أول الأمر فنقل عنه ، ثم تبين أخطاءه فيما بعد فصححها . ورغم ذلك فقد أثنى عليه أبو الفدا والمقريزى وابن خلدون وابن خلكان وغيرهم .

القزوينى

هو زكريا بن محمد القزوينى ، ولد فى بلدة قزوين . التى تقع جنوب بحر قزوين — أو بحر الخزر — فى سنة ٦٠٠ ﻫ ؛ سنة ١٢٠٣ م . وهو من أصل عربى ، وقد طاف فى صباه بإيران والعراق والشام ، ثم قصد إلى دمشق حيث اتصل ببعض علمائها ، وتولى القضاء ببعض مدن العراق فى عهد الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين وظل فى منصبه حتى سقطت بغداد فى يد المغول سنة ٦٥٦ ﻫ .

وأهم كتبه كتابان : أولهما فى الفلك والجغرافية الطبيعية وعنوانه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » جمع به ما عرف وسمع من خصائص البلاد والعباد ، ولكنه ضم الغث

والسمين من المعلومات دون نقد أو بحث .

وهو قسمان : أولهما يتناول الأشياء السماوية ، والثانى يتناول الأشياء الأرضية .

أما الكتاب الثانى فله عنوانان مختلفان : أقدمهما هو « عجائب البلدان » وأما العنوان الثانى فهو « آثار وأخبار العباد » ، ويبحث فى الجغرافيا التاريخية وما يتصل بها ، وفيه وصف لأحوال البلاد وسكانها ، وقد قسمها إلى سبعة أقاليم وتحدث عن بلاد كل إقليم . ولم يقتصر فيه على البلاد الإسلامية بل ذكر البلاد الأوربية وغيرها ، وزوده بمجموعة من الرسوم والصور . وقد نقل القزوينى فى هذا الكتاب الكثير مما كتبه بعض الجغرافيين المسلمين ، وبالأخص فيما يتصل بالأندلس والبلا د الفرنسية والألمانية والهولندية ، كما اتصل بكثير من الرحالة وقرأ كتبهم وأفاد من مشاهداتهم .

ومن العجائب التى رواها القزوينى والتى لا يصدقها العقل ما ذكره عن جزيرة فى بحر الصين لا يسكنها إلا النساء ، « لا رجال معهن أصلا ، وأنهن يلقحن من الريح ويلدن النساء مثلهن ، وقيل إنهن يلقحن من ثمرة شجرة عندهن يأكلن منها ، فيلقحن ويلدن نساء » .

وذكر عن حلب « أنه ظهر بها سنة أربع وعشرين وستمائة تنين بغلظ منارة وطول مفرط ، ينساب على الأرض ، يبلع كل حيوان يجده ، ويخرج من فمه نارا تحرق ما تلقاه من شجر

أو نبات ، واجتاز على بيوت أحرقها ، والناس يهربون منه يمينا ويسارا ، حتّى انساب قدر اثنى عشر فرسخا ، فأغاث الله تعالى الخلق منه بسحابة نشأت وتدلت إليه ، فاحتملته ، وكان قد لفّ ذنبه فى كلب ، فرفع الكلب وهو يعوى فى الهواء ، والسحاب يمشى به والناس ينظرون إليه إلى أن غاب عن الأعين » . . .

وكانت وفاته سنة ٦٨٢ هـ ؛ سنة ١٢٨٣ م .

العبدرى

هو محمد بن على ، وينسب إلى جده الأعلى عبد الدار ابن قصى القرشى . وأصل أسرته من بلنسية ، ولكنها أقامت بالمغرب ، فى طفولة العبدرى أو صباه . وقد سافر لتأدية فريضة الحج مجتازا شمال أفريقية حتّى وصل الإسكندرية فمكة عن طريق البر .

وقد عنى العبدرى فى كتابه « الرحلة الغربية » ببيان المواقع الجغرافية والمعالم الأثرية ودراسة العادات .

ومما ذكره عن الجزائر قوله : « إن حصونها تتحدى الأعداء بمتانتها ، لكنها خالية من العلم . وليس فيها من يمكن أن يعد من العلماء » . . .

وقال عن تونس : « للمدينة عدة أبواب يمكن الدخول

منها ، وخارج كل منها ضاحية جميلة تكاد تكون فى اتساع المدينة نفسها . . . ولو أن تونس يتاح لها نهر يروى عطشها ، لفاقت جميع حواضر الإسلام ، ولكن من سوء الحظ فماؤها نزر يسير ، والناس يشربون من ماء المطر الذى يخزنونه فى الآبار .

« وتونس مدينة كبيرة الأهمية إذ هى عاصمة أفريقية (جمهورية تونس اليوم) . . ولم أر لا فى الشرق ولا فى الغرب قوماً كأهلها فى دماثة الخلق ورقة الطبع . . . وفى أهلها من بلغ فى العلم الدرجة القصوى ، وبينهم من يمتاز بعلو الهمة . . . وهناك من يترك عمله ليتمتع بصحبة عالم . . . كما حدث لى » .

ثم يصف قرطاجة وآثارها ، ولكنه يهتم بالقناطر التى تجرى قناة الماء فوقها والتى يسميها التونسيون « حنايا » ، ويشير إلى الاهتمام بإصلاحها لأنها توصل بعض الماء من قرطاجنة إلى تونس . .

ويقول عن أهل برقة : « انهم يتكلمون العربية بصفاء أهل الحجاز بحيث أن ولدا سأل الحجاج قائلا لهم : « يا حجاج . . أمعكم شيئا تبيعونه ؟ » وقد شكل كل كلمة فى السؤال » .

ومما تناوله أيضا وصفه لما كان يلقاه القادمون إلى ثغر الإسكندرية من قسوة موظفى الجمارك وتغاليهم فى التفتيش إذ يقول : « وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبى ، وجعل الانفصال عنهم غاية أربى . وذلك أنه لما وصل

إليها الركب جاءت شرذمة من الحرس . . . فمدوا فى الحجاج أيديهم ، وفتشوا الرجال والنساء ، وألزموهم أنواعا من المظالم ، وأذاقوهم ألوانا من الهوان ، ثم استحلفوهم وراء ذلك كله » . . .

وهو يشبه ابن بطوطة فى طريقة روايته لأخبار رحلته ، ولكنه يفترق عنه فيما يبدو على أسلوبه من تكلف وجرى وراء الألفاظ .

أبو الفدا

هو الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل ، وينتهى نسبه إلى المظفر بن شاهنشاه ابن أخى صلاح الدين الأيوبى .

ولد بدمشق سنة ٦٧٢ هـ ، ولما عاد حكم حماه إلى أسرته عاد معها واشترك فى بعض ما قامت به من حروب ، ولما انقطع حكم حماه عن أسرته ظل فى خدمة نائبها . ولما استرد الملك الناصر محمد بن قلاوون ملك مصر عين المؤيد نائبا عنه فى حماه سنة ٧١٠ هـ ؛ سنة ١٣١٠ م ، وكانت العلاقات بينهما طيبة .

وقد زار أبو الفدا مصر مرارا ، وطاف بأغلب بلاد الشام .

واشتغل بعلوم عدة ، وله فيها مؤلفات قيمة أشهرها :

١ ــ المختصر فى أخبار البشر ، وهو فى التاريخ العام ويعرف بتاريخ أبى الفدا .

٢ ــ تقويم البلدان ، وهو فى الجغرافيا ووصف الأقاليم ، وقد مهد له بمقدمة بين فيها الدافع له على تأليفه فقال : « لما طالعت الكتب المؤلفة فى البلاد ونواحى الأرض من الجبال والبحار وغيرها ، لم أجد فيها كتابا موفيا بغرضى » . ثم ذكر بعض هذه المؤلفات وبين نواحى النقص التى رآها فيها كعدم ذكر خط الطول والعرض وإهمال ضبط الأسماء .

وتظهر فى كتاب أبى الفدا دقته فى التعبير عن الحقائق العلمية المعروفة فى عهده ، كما يشعر القارئ بإحاطته بكل ما يكتب فيه مع عنايته بالتحقيق والضبط ، وقد ذكر فى مقدمته أنه جمعه مما تفرق فى كتب عديدة .

وقد أورد فى كتابه ضروبا من النظريات لا يزال عدد كبير منها صحيحا ، ككروية الأرض ، وتحدث عن خط الاستواء والجهات المعمورة فى أيامه .

وتكلم عن نهر النيل فقال : « ومبتداه وأوله الخراب الذى هو جنوب خط الاستواء ، ولذلك تعسر الوقوف عليه ، ولم يتصل بنا من أخباره إلا ما نقل عن اليونان ، ونسب إلى بطليموس أنه ينحدر من جبل القمر من عشرة مسيلات منه ، بين كل نهر منها والآخر درجة فى الطول » .

وذلك دليل على قلة المعلومات عن ذلك النهر الكبير يومئذ .

ويتناول هذا الكتاب بعض النواحي المسكونة ويصفها

وصفاً إقليميا ، فيذكر الحدود والبلادالمتاخمة ، والأنهار والجبال والمدن والنواحى المختلفة ، والأجناس واللغات أحيانا ، إلى غير ذلك ، مع ضبط الأسماء .

ومن البلاد التى تكلم عنها : جزيرة العرب ، ومصر ، والشام ، والمغرب ، والسودان ، والأندلس ، وفارس ، والهند ، والصين ، وبلاد الروم ، وأرمينية ، وخراسان .

وهذا الكتاب يعد مفخرة من المفاخر العلمية للعصر المملوكى ، كما أنه من الكتب الجغرافية الجليلة التى خلفها لنا علماء العرب .

وكانت وفاة أبى الفدا سنة ٧٣٢ هـ ؛ سنة ١٣٣١ م .

ابن بطوطة

لو رجع بنا التاريخ عدة قرون ، إلى الفترة فيما بين سنة ٧٥٤ وسنة ٧٦٩ هـ (١٣٥٣ – ١٣٧٧ م) وانتقلنا إلى مدينة فاس لشاهدنا شيخاً جليلا جالسا وسط الحدائق الغناء ، ومن حوله حلقة كبيرة من أصدقائه من أعيان المدينة وكبرائها ، وهم ينصتون بإعجاب ودهشة إلى مغامراته التى يقصها عليهم حتى ليتهمه بعضهم بالاختلاق أو الجنون ، إذ يتنقل بمستمعيه من وسط أفريقيا إلى روسيا ، ومن الهند إلى الصين .

ذلكم الشيخ الجليل ، هو ابن بطوطة ، أعظم رحالة العرب جميعا .

ولد أبو عبد الله محمد بن بطوطة فى بلدة « لواتة » ونشأ فى مدينة طنجة سنة ٧٠٣ هـ ؛ سنة ١٣٠٤ م والذى نعرفه — عن لسانه هو — أن والده كان قاضياً وأنه هو أيضا ولى القضاء، إلا أن حوادث طفولته ومستوى تعليمه مجهولة لدينا . ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره ، غادر بلدته لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن يؤمئذ يعلم البلاد التى سوف يقدر له زيارتها ورؤية أطرافها ، أو يقدر أنه سيغيب عن أهله وأقاربه نحو ثمانية وعشرين عاما أو أنه سيصل إلى أقطار لا يعلم أهل المغرب عنها غير أسمائها .

وتنقسم رحلات ابن بطوطة إلى ثلاث مراحل أو سفرات واسعة النطاق ، جاب فيها أكثر ما عرف فى عصره من البلاد .

فالرحلة الأولى من سنة ١٣٢٥ إلى سنة ١٣٤٩ زار فيها شمال أفريقية ومصر والشرق الأوسط وأفريقية الشرقية وجزيرة العرب واليمن . ثم قصد إلى القسطنطينية وبعد أن أقام بها فترة من الزمن عاد إلى الهند ، ثم سافر مع أعضاء البعثة « الدبلوماسية» التى أرسلها سلطان الهند محمد شاه إلى ملك الصين .

والرحلة الثانية من سنة ١٣٥٠ إلى سنة ١٣٥١ زار فيها الأندلس وجبل طارق وغرناطة .

والرحلة الثالثة من سنة ١٣٥٢ إل سنة ١٣٥٤ زار فيها السودان وغرب أفريقيا .

ورغم أن ابن بطوطة لم يسجل أغلب تواريخ الأحداث التى مرت به فى رحلاته فإنه أثبت اليوم الذى فارق فيه وطنه وبدأ أولى رحلاته ، ففى اليوم الثانى من رجب سنة ٧٢٥ هـ بدأ ابن بطوطة رحلته من طنجة إلى الإسكندرية بطريق البحر ، وقد وصفها وصفاً موجزا ، ولا سيما المنار وعمود السوارى وتحدث كثيرا عمن لقيهم من علمائها .

ومن طريف ما ذكره عن دمياط أنها كانت مسورة ، وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج منها إلا بإذن حاكمها ، وكان هذا الإذن مدونا على ورق مختوم بخاتم الحاكم فيسمح له حراس أبواب المدينة بمبارحتها بعد فحص هذه الورقة .

ثم وصف القاهرة والفسطاط وذكر المساجد والمدارس والنيل الذى وصفه بأنه أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار ، وقد لاحظ فيضانه ، وعجب من زيادته فى شدة الحر عند نقص الأنهار الأخرى وجفافها ، وابتداء نقصانه حين تزيد الأنهر الأخرى وتفيض .

واهتم ابن بطوطة بزيارة الأهرام ، ولكنه لم يذكر أبا الهول . وقد ذكر بعض الأساطير عن أصل الأهرام فقال إنهم يزعمون

« أن الذى بناه هو هرمس [1] الأول ، الذى كان أول من تكلم عن الحركات الفلكية ، وأنذر الناس بالطوفان ، وخاف ذهاب العلم واندثار الصناعات ، فشيد الأهرام ، وصور جميع الصناعات والآلات ، ورسم على جدرانه العلوم والفنون لتظل مخلدة » .

ثم غادر القاهرة إلى الأقصر فأدفو ، فالبحر الأحمر ليستقل السفينة إلى الحجاز ، ولكنه لما وصل إلى ميناء عيذاب وجد حاكمها فى حرب مع المماليك فتعذر السفر عليه وعاد إلى القاهرة ثم قصد إلى بلاد الشام . وهو يصف الطريق وصفاً مسهباً ويذكر أن فى كل مرحلة من الصحراء فندقا ينزل فيه المسافرون بدوابهم ، وبخارج كل فندق ساقية لشرب الدواب وحانوت يبتاع منه المسافر كل ما يحتاجه . كما ذكر أنه فى كل نقطة للحدود تدفع الضرائب وتفحص جوازات السفر .

ومن الغريب أن رحالة إيطاليا يدعى فرسكوبالدى Frescobaldi الذى زار مصر فى سنة ١٣٨٤ ، أى بعد ابن بطوطة بنحو ستين عاما فجاءت أوصافه والأرقام التى أوردها عن السكان وعدد المراكب فى النيل والمتاجر والمساجد كما دونها ابن بطوطة أو قريبا منها .

وقد رأى فى دمشق حادثة طريفة يقصها علينا فيقول :

---

(١) يلاحظ التقارب بين كلمة هرم وهرمس .

« مررت يوما ببعض أزقة دمشق ، فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصينى — وهم يسمونه الصحن — فتكسرت . واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم : اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأوانى . فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن » .

وعقد ابن بطوطة فصلا للكلام على الأوقاف بدمشق ، كتب فيه : « إن الأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها . . . ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن وهن اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان فى جنبيه يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان بين ذلك . ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير » .

وبعد أن حج ابن بطوطة زار العراق وبلاد فارس والحجاز وزار اليمن وساحل إفريقية الشرقية ، وطاف حول سواحل جزيرة العرب . وبعد ذلك ذهب إلى بلاد الروم حيث حظى بشئ من أعظم الأشياء فى حياته ، هو مقابلته جماعة الإخوان أو الفتيان . وهم جماعة اشتهروا بالمروءة والفضل ، وقد أثنى ابن بطوطة على كرمهم وحسن ضيافتهم ثناء عاطرا ، حيث

يقول : « وعند وصولنا لمدينة لاذق مررنا بسوق لها ، فنزل إلينا رجال من حوانيتهم وأخذوا بأعنة خيلنا ، ونازعهم فى ذلك رجال آخرون ، وطال بينهم النزاع حتى سلّ بعضهم السكاكين ، ونحن لا نعلم ما يقولون . وخفنا منهم ، وحسبنا أنهم يريدون نهبنا . ثم بعث الله لنا رجلا حاجا يعرف اللسان العربى ، فسألته عن مرادهم ، فقال : إنهم من الفتيان ، وكل طائفة ترغب أن يكون نزولكم عندها . فعجبنا من كرم نفوسهم » .

وبعد أن عبر ابن بطوطة البحر الأسود ، ذهب إلى شبه جزيرة القرم بجنوب روسيا حيث طاف بأرضها ، حتى اقترب من ستالينجراد ثم زار القسطنطينية وقصد بعد ذلك إلى الهند واتصل هناك بالسلطان محمد بن تغلاق ، ومكث فى خدمته سبع سنين . وقد مرت على ابن بطوطة فترات كان فى أثنائها تارة محبوبا مقربا من السلطان ، وتارة مقصيا مغضوبا عليه ، حياته معرضة للخطر الحقيقى .

وحدث أن أرسله السلطان فى بعثة إلى عاهل الصين فتحطمت سفينته ، وبدلا من أن يعود ليواجه غضب السلطان ، آثر أن يستأنف رحلاته مرة أخرى .

ثم ذهب إلى الصين ، وفى وصفه لها نجد أقدم إشارة إلى استخدام ورق النقد فى المعاملات ، وهو من اختراع الصينيين ، إذ يقول : « وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد ، كل قطعة منها قدر الكف

مطبوعة بطابع السلطان . وإذا تمزقت تلك الكواغد فى يد إنسان ، حملها إلى دار كدار السكة عندنا ، فأخذ عوضا جددا ودفع تلك ، ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها . وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار ، يريد شراء شيء ، لم يؤخذ منه ولا يلتفت إليه » .

وكانت الصين آخر ما وصل إليه ابن بطوطة من الأقطار . وقد عاد منها بطريق البحر إلى الخليج العربى ، ثم جاب بلاد الفرس والعراق والشام ومصر مرة أخرى ، وبعد أن أدى فريضة الحج للمرة السابعة والأخيرة ، عاد إلى فاس من الإسكندرية بطريق البحر ، واتصل هناك بالسلطان أبى عنان فارس من سلاطين بنى مرين . عندئذ لم يكن باقيا من البلاد الإسلامية سوى بلدين اثنين لم يزرهما ابن بطوطة ، هما الأندلس وبلاد السودان فى وسط إفريقيا فرحل لزيارتهما فى السنة التالية ، ثم عاد مرة أخرى إلى فاس عام ٧٥٤ هـ ؛ ١٣٥٣ م .

وأعجب السلطان أبو عنان المرينى بقصة ابن بطوطة ورحلاته ، فأمر كاتبه محمد بن جزى الكلبى — وكان صديقا لابن بطوطة — أن يدوّن ما يمليه عليه ابن بطوطة من قصصه وأسفاره . وقد أطلق ابن جزى على الكتاب اسما جديرا به ، وهو « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . وقد استحق ابن بطوطة ولا ريب تلك الراحة الطويلة التى تمتع بها خلال السنوات الخمس والعشرين من آخر حياته ، إلى أن

انتقل إلى رحمة ربه سنة ٧٧٩ هـ ؛ ١٣٧٧ م .

ولرحلات ابن بطوطة أهميتها ، ذلك أن أوصافه لأغلب الأقاليم التى زارها لا تختلف عما يكتبه أى سائح فى العصر الحاضر .

والقارئ لرحلة ابن بطوطة يلاحظ أنه لم يكن يطمح عند بدء رحلته إلى غير أداء فريضة الحج ، ولذلك كان القسم الخاص بالمراحل الأولى من رحلته قاصراً على ذكر العلماء والصالحين الذين قابلهم ، والزوايا التى أقام فيها ، ووصف بعض المدن الكبرى التى مر بها وصفاً عابراً لا دقة فيه . ولم يعن بدراسة أحوال المجتمع والشئون السياسية وتقلبها ، وقنع بالتحدث عن كرامات الأولياء والزاهدين . ولكنه بعد أن وجد الترحل سهلا والزوايا التى يأوى إليها الغرباء كثيرة وعطايا الولاة والحكام كافية ، بحيث تنفى عنه الحاجة إلى السؤال أو إلى الأموال الطائلة ، مال إلى الأسفار . وتفتح ذهنه على ما يراه من أحداث فصار يسجله ويقارنه بغيره فى الدويلات والممالك التى يزورها ، حتى صار مضرب المثل فى دقة الملاحظة ، وأصبح يصف طبائع الناس وطرق معايشهم وموارد رزقهم ، وصلاتهم بمن يجاورهم ، ويعنى بأحوال الأمراء والحكام واحتفالاتهم فى الأعياد ، و « البروتوكول » المتبع فى مقابلاتهم ومحادثاتهم ومعاملاتهم ، ويقارن بين أثمان النقود المتداولة فى الممالك ، ويسجل المسافات بالأميال والفراسخ والأيام .

ويمتاز عن سواه من الرحالة السابقين واللاحقين بالتفوق فى الدرس ، إذ لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ألم بها وبسطها بتفصيل ، وهو أول من أخبرنا بأن مسلمي الهند توجوا عليهم سلطانة هى — « رضية » بعد أن ثاروا على أخيها « ركن الدين » وقتلوه ، وبقيت — فى الحكم أربع سنين ثم خلعوها . وروى لنا كذلك اسم السلطانة خديجة التى حكمت جزر « ذيبة المهل » الواقعة قرب خليج البنغال .

ولا يضير ابن بطوطة بعض التحريف فى أسماء الأقاليم والمدن التى زارها . والغالب أن الذين سبقوه إلى دخول تلك الديار هم الذين حرفوا تلك الأسماء ، أو أن ابن بطوطة — اعتمد على ذاكرته وحدها — وهو يملى أنباء رحلاته ونسى صحة لفظ الأسماء . لأنه فقد أمواله ومذكراته بعد عودته من الشرق الأقصى

مكانة ابن بطوطة بين الرحالة العرب :

شهد ابن بطوطة العصر الذى بلغت فيه الحضارة العربية ذروتها واتسعت رقعة الدولة العربية من حدود الهند شرقا إلى المحيط الأطلنطى غربا ومن آسيا الوسطى وجبال القوقاز شمالا إلى صحارى أفريقية جنوبا . وكان سابع سبعة من أعلام الجغرافيين العرب هم : القدسى ، الإدريسى ، ابن جبير ، السمعانى ، ياقوت ، البيرونى ، وابن بطوطة . ولكنه — كرحالة — يكاد يكون أرفع الجغرافيين العرب مقاماً وأكثرهم طوافا ، وأوفرهم

استيعاباً للأخبار ، وأشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية وحديث رحلاته الطويلة يشهد بأنه من المغامرين الذين يدفعهم حب الاستطلاع والرغبة فى الاستمتاع بالحياة إلى ركوب الصعب من الأمور .

وقد اهتم الأوربيون بهذه الرحلة كثيرا ، وبحثوا عن مخطوطها الأصلى فلم يجدوا سوى مختصرا اكتشفه السائح بوركارت Burchart ، ثم اكتشف المستشرق كيسجارتن Kasegarten نسخة خطية ثانية ، فترجم عنها إلى اللغة اللاتينية ، وأخيرا طبعت الرحلة فى باريس مع ترجمة فرنسية بإشراف عالمين مستشرقين ، كما نقلها إلى الإنجليزية أحد القسس ، ونشر تلخيصا عنها المستشرق جب Gibb ، وهى أيضا مترجمة إلى اللغات الألمانية والبرتغالية والتركية .

وقد طبعت فى القاهرة طبعتين آخرهما طبعة منقحة سنة ١٩٣٤ تحت عنوان « مهذب رحلة ابن بطوطة » بإشراف وزارة المعارف (التربية والتعليم) .

ابن خلدون

ابن خلدون من صميم العرب ، ينتسب إلى أسرة عربية الأصل يمنية منحدرة من ملوك كندة كانت تنزل فى حضرموت ، فلما ظهر الإسلام واتسع الفتح حتى بلغ إسبانيا نزح جده إليها

واسمه خالد ، ثم أبدل هذا الاسم إلى خلدون للتصغير والتحبيب .

كانت الهجرة فى أول عهد إسبانيا بالفتح الإسلامى ، وأصابت أسرته فيها إقبالا عظيما ولكنها اضطرت للنزوح إلى تونس عندما شدد أهل إسبانيا الأصليون النكير على العرب ، فولد مؤرخنا العظيم فى هذه المدينة سنة ٧٣٢ ه الموافقة سنة ١٣٣٢ م ، فلما بلغ سن التعلم حفظ القرآن الكريم وأخذ الفقه المالكى واللغة والنحو عن أبيه ، ودرس سائر العلوم المعروفة فى زمنه على أساتيذها المشهورين ، وحصل منهم على شهادات بتفوقه فيها . فلما بلغ السادسة عشرة عين فى وظيفة بديوان صاحب تونس . ثم رحل إلى فاس فأسند إليه سلطانها أمانة ديوانه ، أى جعله كاتبا خاصا له . وما عتم أن اتهم بمكاتبة أحد الأمراء المسجونين لإحداث ثورة فسجن ثلاث سنين ، ثم أطلق سراحه فشخص إلى الأندلس وشغل فيها محلا فى ديوان صاحب غرناطة . ثم نزح إلى بجاية فجعله صاحبها وزيرا له جزاء مساعدته إياه . ثم طلبه صاحب تلمسان وعرض عليه أن يجعله أمينا له فشغل هذه الوظيفة مدة . ثم اضطر أن يعود إلى فاس ومنها قصد إلى الأندلس سنة ٧٧٦ ه فلم يصادف حظا من سلطان غرناطة ، فعاد إلى تلمسان كارها المناصب الحكومية وعكف على الدرس والبحث والتأليف .

ثم بدا له أن يرحل إلى مصر للاطلاع على عيون مؤلفاتها ، فعينه ملكها « برقوق » قاضيا للمالكية ثم عزله ، فرحل إلى مكة

فالمدينة . ثم آب إلى مصر ، حيث عاد إلى تولى القضاء ثم عزل عنه . وفى خلال ذلك سافر إلى الشام ، وكان فى دمشق عندما حاصرها تيمورلنك وافتتحها. والتقى الرجلان فأعجب به عاهل المغول ودعاه للبقاء معه ، فتخلص بلباقة وعاد للقاهرة . وما فتئ يعاد إلى منصبه ويعزل بفعل الدساسين حتى تكرر ذلك ست مرات ، إلى أن توفى سنة ٨٠٨ هـ ؛ سنة ١٤٠٦ م .

واشتهر ابن خلدون بكتابه الذى سماه « ديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ، وهو فى جملة أجزاء كبيرة . واشتهر كذلك بالمقدمة التى وضعها لهذا التاريخ وهى المعروفة باسم « مقدمة ابن خلدون » ، تناول فيها عدة موضوعات وثيقة الصلة بالجغرافية البشرية والاجتماعية . وقد خصص ابن خلدون القسم الأول من مقدمته لبحث العمران البشرى وتحدث عن البحار والأنهار ، وذكر الأقاليم الجغرافية السبعة المألوفة وما يدخل تحت كل منها . ثم تعرض لتأثير الإقليم فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم وضرب السودان مثلا لتأثير المناخ على الأخلاق إذ يقول : « ولما كان السودان ساكنين فى الإقليم الحار ، استولى الحر على أمزجتهم . وفى أصل تكوينهم كان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أسرع فرحا وسرورا » .

ويخصص فصلا ممتعا لنشأة البلدان والأمصار وضرورة التعاون بينها ، ثم يتناول توزيع الصناعات على المناطق المختلفة

فى الدولة ثم يتحدث على العمل والإنتاج والأجور والزراعة والتجارة ووسائل نقل السلع مخصصاً فصلا للاحتكار . وكل هذه البحوث هى ما يسمى الآن بالجغرافيا البشرية أو الجنسية والجغرافيا الاقتصادية .

ولم تقتصر مؤلفاته على التاريخ والمقدمة بل وضع كتابا فى المنطق ، واختصر فلسفة ابن رشد ، وألف فى الفقه والرياضة والأدب . ولم ينس ابن خلدون أن يسجل حياته فى كتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » وهو كتاب حافل للحياة التى عاشها ابن خلدون ، بما فيها من أحداث وأعلام ومشاهد ، مما يجعله وثيقة جغرافية تاريخية أدبية تكشف عن العصر الذى عاشه والبلاد التى رآها .

لم يكن ابن خلدون علما من أعلام التاريخ العربى فحسب بل إنه قائد من قادة الفكر الإنسانى ، اعترفت له أوربا بفضل سبقه فى بعض ميادين البحث التى طرقها ، لم يكتب لعصره أو أمته أو لغته فقط بل كتب لكل من شاء أن يتفقه فى سياسة الدولة وعلم العمران البشرى ، وحسبه أنه جمع فى جعبته خلاصة تجاربه واتصالاته بدول العرب والمسلمين التى كانت قائمة فى فى عهده بالقارات الثلاث : أوربا وآسيا وإفريقية .

ولقد مكن لابن خلدون من هذه المنزلة عدة عوامل ، أهمها : عبقرية ممتازة ، واطلاع واسع على ما كتبه من سبقوه من المفكرين ، وعصر حافل بالتقلبات السياسية عاش فيه وخاض

غمار اضطراباته ، بل سطر كثيرا مما قام به من النشاط السياسى والعلمى فى الدول المتعددة التى خدمها ، وحسبنا فى تقدير مؤهلات هذا العالم الجليل ما أشرنا إليه من مناصب تقلدها .

وكما عرف ابن خلدون عز الحكم ،عرف مذلة السجن ، وكما تمتع بالحظوة من الملوك والخلفاء فقد اصطلى بنار الجفوة وأشواك الدسائس ، وكما امتحن بالناس امتحن بأهله إذ غرقت زوجته وأولاده وهم فى طريقهم إلى مصر ، فاعتزل الحياة وعكف على التأليف فأخرج لنا ثروة من العلم أصبحت تراثا فى الشرق والغرب . والحق أن عددا قليلا من مؤلفى العرب قد حظى بمثل ما حظى به ابن خلدون من علماء أوربا وأمريكا ، دراسة ونقدا وترجمة .

ومما يسجل لابن خلدون بالإعجاب ، إنصافه لابن بطوطة عندما رماه سامعوه بالغلو والمبالغة ، واعترافه بالفضل لمن سبقه فيما تصدى له من بحوث ، وتواضعه العلمى الذى يتجلى فى قوله أنه على الرغم مما بذله من جهد فى مقدمته إلا أنه قانع بأن يعد نفسه مجرد ممهد للطريق لمن يجىء بعده ..

الفصل السادس

المؤلفات الجغرافية فى عصر المماليك

على الرغم مما اتسم به بعض سلاطين المماليك فى مصر من ظلم وفوضى ، فقد وجه نفر منهم اهتمامه إلى العلوم والفنون فظهرت فى عصرهم مؤلفات جغرافية وفلكية عدة ، أهمها :

سرور النفس بمدارك الحواس الخمس :

لابن منظور الأفريقى المتوفى عام ٧١١ هـ (١٣١١ م) ، وهو جزءان فى وصف الليل والنهار والكواكب والمطر والبرق وغير ذلك .

مباهج الفكر ومناهج العبر :

لجمال الدين محمد بن إبراهيم الوطواط المتوفى عام ٧١٨ هـ (١٣١٨ م) ، وهو يقع فى أربعة أجزاء تكلم فيها عن علم الهيئة ووصف الأرض والحيوان والنبات .

نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر :

تأليف شمس الدين الدمشقى المتوفى عام ٧٢٧ هـ (١٣٢٦ م) وهو يشتمل على وصف الأرض وأقاليمها وما فيها من بحار وجزر وجبال وطرق وآثار وعمائر وحيوان ونبات ، وأحجار ، ومساحات الأرض ومسافاتها ، وكذلك أنساب الأمم واختلاف طبائعها .

نهاية الأرب فى فنون الأدب :

تأليف أبو العباس شهاب الدين المعروف بالنويرى المتوفى عام ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) ، وهو فى أكثر من ثلاثين مجلدا ، ويعتبر أحد الكتب الجامعة الهامة . اعتمد عليه كثير من المؤلفين ، وفيه فصول عن الأجرام السماوية والسحاب والمطر والثلج والصواعق والنيازك والفصول ، ووصف الأرض وما فيها من جبال وأنهار وبحار ، ووصف لطبائع الإنسان والحيوان والأسماك والنبات وغير ذلك .

مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار :

لشهاب الدين بن فضل الله العمرى المتوفى عام ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م ، وهو موسوعة ضخمة فى أكثر من عشرين مجلدا . وهو عمدة بين الكتب ، استمد منه كثيرون ، وفيه موضوعات شتى منها وصف الأرض وسكانها وحيوانها ، وأقطارها ومسالكها وما فيها من أنهار وجبال وجزر وبحار وبرك ومبان . ، فضلا عن استطرادات تاريخية وأدبية قليلة الوجود فى سواه ، وكثير من تراجم الأعلام .

التحفة السنية فى أسماء البلدان المصرية :

تأليف شرف الدين بن الجيعان كتبه عام ٧٧٧ هـ (١٣٧٥ م) وهو يشتمل على إحصاءات إدارية وخراجيةعن الأرض فى أيام الملك الأشرف شعبان .

الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة :

تأليف أبو حامد القدسى المصرى المتوفى عام ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) فى وصف جغرافيتهما وتاريخهما .

التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطط القاهرة :

تأليفأقبغا الخاصكى وزير السلطان قانصوه الغورى المتوفى عام ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) .

فضائل الشام :

تأليفعماد الدين الحنفى المتوفى عام ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) .

الفصل السابع

عصر الكشوف الجغرافية

قامت بعض دول أوربا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر بعدة كشوف جغرافية ، وقد حفزها إلى ذلك أسباب شتى منها :

١ ـــ فشل الصليبيين فى محاولاتهم استعمار بعض البلاد العربية ورغبتهم فى استعمار أراض أخرى .

٢ ـــ انقسام العرب فى الأندلس وتغلب البرتغاليين والإسبانيين عليهم وسقوط غرناطة آخر حصن للعرب سنة ١٤٩٢ .

٣ ـــ كان تحكم الأتراك فى طرق التجارة المارة بآسيا الصغرى وتحكم المماليك فى مصر والشام حافزا للبرتغاليين على كشف طرق جديدة توصل إلى الهند عن طريق البلاد العربية .

ولا شك أن تلك الكشوف لم يصبها النجاح والتوفيق إلا بفضل ما ورثه أو نقله البرتغال والإسبان عن عرب الأندلس من أدوات وخبرات ومعلومات كفلت لهم تحقيق كشوفهم الجغرافية .

ومن الغريب أن العرب عاونوا البرتغاليين فى الوصول إلى الهند سنة ١٤٩٦ ، فقد ثبت أن ابن ماجد الملاح العربى ساعد

فاسكورى دى جاما البرتغالى في تسيير أسطوله من ساحل إفريقية الشرقية إلى الهند وبذلك كشف البرتغاليون الطريق إليها .

وتنبه العرب فى مصر بعدئذ إلى خطر البرتغاليين فى تلك المناطق ، فاتحد الغورى سلطان مصر مع البنادقة وحاربوا البرتغاليين ، ولكن البرتغاليين انتصروا عليهم انتصارا حاسما فى موقعة « ديو » أمام بمباى سنة ١٥٠٩ ، وبهذه الموقعة تقوى مركز البرتغال فى الشرق وبدأت بعدئذ الدول التى تمس سواحلها المحيط الأطلنطى تبنى نفوذها التجارى والاستعمارى فى الشرق .

وبينما كانت هذه الأحداث تجرى كان مغامر برتغالى آخر يدعى البوكرك يضع خطة جهنمية ليختطف جثمان الرسول الطاهر ثم يعرضه على المسلمين مقابل التخلى للأوربيين عن فلسطين ، ودار بخلده كذلك مشروع وهمى آخر ألا وهو تحويل مجرى النيل حتى يصب فى البحر الأحمر بدلا من البحر المتوسط حتى يحرم مصر من مياهه وطميه ويتم هلاكها ، ولكن الأقدار لم تمهله لينفذ خطته الأولى ولا مشروعه الثانى إذ توفى سنة ١٥١٥ م .

ودخلت مصر وباقى الدول العربية فى فترة خمول وركود بعد أن سيطر عليها العثمانيون منذ عام ١٥١٧ .

الفصل الثامن

العصر العثمانى

وجاء الغزو العثمانى للبلاد العربية فى أوائل القرن السادس عشر ، فكان أكبر كارثة منيت بها فى تاريخها . إذ عاش العالم العربى فى عزلة تكاد تكون تامة عن العالم الخارجى ، فى الوقت الذى كانت تسير فيه بعض الدول الأوربية نحو نهضة أدبية وعلمية وسياسية أيقظت شعوبها فيما بعد ، وخلقت منها دولا موحدة تعتز بقوميتها وتعمل على إنماء ثروتها وزيادة نفوذها ، حتى إذا ما بدأ القرن التاسع عشر أخذت الدول الأوربية تحتل بعض أجزاء العالم العربى جزءا فجزءا والأتراك عاجزون عن ردهم .

الفصل التاسع

جهود مصر فى عالم الجغرافيا منذ القرن التاسع عشر

ظهرت فى مصر نهضة شاملة منذ بداية القرن التاسع عشر، امتدت إلى النواحى الجغرافية إذ قامت مصر بجهود عظيم فى سبيل الكشف عن حوض النيل وشرق إفريقية ، ففتحت أمام العالم المتمدين طريق النهر إلى قلب القارة المظلمة وبذلك ساعدت على حل لغز النيل .

وقد سارت البعثات العلمية المصرية يومئذ ترافق الجيوش المصرية تجوب الأقطار الجديدة ، باحثة منقبة ، مدوّنة كل ما تشاهده فى دقة وعناية حتى تسنى لها جمع معلومات قيمة ونماذج عديدة من الصخور والمعادن والنباتات ورسم شتى الخرائط وكتابة التقارير الوافية مما أضاف الكثير إلى المعلومات الجغرافية عن القارة الإفريقية .

ومن أهم ما تم فى تلك الفترة على أيدى فريق من الضباط المصريين بإرشاد بعض الإخصائيين الأجانب :

١ — رسم خريطة لجزيرة العرب بعد الحروب الوهابية ، عليها مواقع الجبال ومجارى المياه ، وعمل أبحاث عن السكان وطبائعهم

وأعمالهم مع شذرات عن بعض الأماكن والآثار ، ضمها كتاب عنوانه « الأبحاث الجغرافية والتاريخية على بلاد العرب » .

٢ ـ إصدار كتاب « الرحلة إلى سيوة » عقب فتحها سنة ١٨٢٠ وبه خرائط لها وأبحاث عن جغرافيتها وتاريخها .

٣ ـ وقبل فتح السودان كانت المعلومات عن النيل محدودة للغاية ، فلما تم فتحه وضعت عنه عدة كتب ورسمت لبعض أجزائه خرائط تبين الطرق والمسالك .

ثم زادت المعلومات عن النيل بفضل الرحلات التى قام بها البكباشى سليم أفندى سنة ١٨٣٩ ، سنة ١٨٤٠ ، سنة ١٨٤١ والتى استطاع خلالها أن يصل إلى مقربة من غندكرو التى تبعد عن الخرطوم ١٠٨٠ ميل جنوبا ، وبذلك لم يبق بين سليم وبين منابع النيل إلا مرحلة وجيزة ، ولكنه لم يستطع متابعة السير لهبوط مياه النيل ولوجود الجنادل والشلالات فى تلك المنطقة .

وقد وضع سليم تقارير عن رحلاته ألحق بها جداول لأرصاد الجو وضمنها معلومات قيمة عن مجرى النيل والفروع التى تصب فيه والقبائل التى تقيم هناك وكذا الطرق والمسالك .

وترجمت تقارير هذه الرحلات إلى الفرنسية ونشر بعضها بمجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية وغيرها ، فكانت حافزا لكثير من الأوربيين على ولوج ميدان الكشف الإفريقى ، ولذلك قام عدد غير قليل من المستكشفين الإنجليز بجولات وفقوا خلالها إلى الكشف عن منابع النيل ووسط إفريقيا ومن هؤلاء

سبيك وصموئيل بيكر ولفنجستون وستانلى وغيرهم .

وقدمت مصر لهؤلاء كل مساعدة ممكنة، كما أن بعضهم كان يعمل باسمها كصموئيل بيكر. ولولا ذلك لما تمت تلك الحلقة المجيدة من أعمال الكشف خلال القرن الماضى .

٤ — ولما نظمت هيئة أركان حرب للجيش المصرى فى العقد السابع من القرن الماضى قام ضباطها بأعمال مجيدة فى سبيل الكشف الجغرافى لبعض المناطق الإفريقية المجهولة ووضع خرائط ورسوم تفصيلية لها ونذكر من هؤلاء :

محمد مختار باشا(١٨٣٥ — ١٨٩٧) . اشترك فى فتح هرر سنة ١٨٧٥ ورسم لها وللجهات المجاورة لها وازيلع خرائط دقيقة ، كما اشترك فى رسم خريطة مفصلة لأفريقية سنة ١٨٧٧ كانت أدق خريطة عرفت حتى ذلك الحين ، وارتاد شواطئ الصومال سنة ١٨٧٨ (وكانت تابعة لمصر وقتئذ) لاختيار موقع لإقامة فنار ورسم خريطة لتلك الجهات . وفى سنة ١٨٨٠ جاب نواحى السودان الشرقى عندما كان رئيسا لأركان حرب الجيش المصرى بالسودان وقد قام بنشر عدة أبحاث جغرافية هامة بجريدة أركان حرب الجيش المصرى وبمجلة الجمعية الجغرافية المصرية ، كما ألقى بهذه الجمعية عدة محاضرات جغرافية .

ومن أشهر مؤلفاته كتاب « التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية» . وهو يبدأ من السنة الأولى للهجرة حتى سنة ١٥٠٠ هجرية .

محمود باشا الفلكى (سنة ١٨١٥ ـ سنة ١٨٨٦) : وهو يعد أنبغ من أنجبتهم مصر الحديثة فى الفلك والرياضيات ، تخرج فى مدرسة المهندسخانة وعين مدرسا بها ووضع أول تقويم سنوى (نتيجة) فى سنة ١٢٦٤ هـ سنة ١٨٤٨ م وقارن فيه بين التواريخ الهجرية والميلادية والقبطية ، ثم أوفد فى بعثة إلى فرنسا لدراسة الفلك ، ووضع أثناء وجوده بها عدة رسائل فلكية هامة . ولما عاد سنة ١٨٥٩ وضع خريطة جامعة للوجه البحرى لم يسبقه أحد إلى مثلها كما وضع خريطة ثانية للوجه القبلى وثالثة للإسكندرية .

وخطط معالم الإسكندرية القديمة ، وله عدة رسائل منها رسالة ممتعة عنوانها « عمر الأهرام والغرض من بنائها » وقد أخذ بنفسه مقاييس الأهرام ووضع رسالة فى التنبؤ بارتفاع النيل قبل وقوعه ، وهو الذى أنشأ مدفع الظهر بالقلعة . وقد تقلب فى عدة وظائف منها توليه نظارة مدرسة المهندسخانة والرصدخانة ووزارة الأشغال ثم المعارف ، وانتقل إلى رحمة الله وهو وزير للمعارف ورئيس للجمعية الجغرافية .

إسماعيل باشا الفلكى : من تلاميذ محمود باشا الفلكى : وقد درس بالمهندسخانة وسافر إلى باريس لدراسة الفلك ثم عاد واشتغل ناظرا للرصدخانة ثم المهندسخانة ، ومن أهم أعماله إصلاح مقياس النيل عند أسوان سنة ١٨٧٠ ، وله مؤلفات فى الفلك والرياضيات أهمها « الآيات الباهرة فى النجوم الزاهرة »

وكان ينشر تقاويم فلكية سنوية ، وتوفى عام ١٩٠١ .

٥ — وفى البحار قام بعض ضباط البحر المصريين برحلات جريئة ، فهذا القبودان سليمان حلاوة (١٨٢٨ — ١٨٨٥) يتم فى سنة ١٨٧٠ رحلته حول إفريقية على الباخرة المصرية سمنود ، فكان أول مصرى وعربى طاف بسفينة مصرية حول إفريقية فى العصور الحديثة وقد استغرقت رحلته ثلاثة أشهر وستة أيام ، ولما عاد نقل إلى المدرسة البحرية وألف كتابا يسمى « الكوكب الزاهر فى فن البحر الزاخر » .

وأحدث رحلة بحرية قام بها مصريون هى رحلة الباخرة مباحث التى قصدت فى أواخر سنة ١٩٣٣ إلى المحيط الهندى وعلى ظهرها علماء بريطانيون ومصريون لدراسة طبوغرافية قاع ذلك المحيط ورواسب قاعه وأحيائه البحرية وخواص مياهه وتياراته البحرية وأحواله الجوية ، وقد وفقت إلى مجموعة قيمة من الاكتشافات والمعلومات .

وفى أواخر سنة ١٩٣٤ أقلعت تلك الباخرة مرة أخرى وعلى ظهرها أول بعثة مصرية أوقيانوغرافية شهدها التاريخ فاتجهت إلى البحر الأحمر لدراسة طبوغرافيته وسبر أغواره ، وقد نجحت فى مهمتها وعادت بنتائج أضافت الشىء الكثير إلى ما يعرف عن ذلك البحر .

٦ — إنشاء الرصدخانة : (المرصد) : أنشئ أول مرصد فلكى فى مصر فى العصور الحديثة سنة ١٨٤٦ ببولاق ، وفى

سنة ١٨٦٥ نقل إلى العباسية ، وكان يشغل مبنى مكانه الآن طرف المبانى الجديدة لجامعة عين شمس عند نفق العباسية ، واشتهر باسم « النظارة » . ولما اتسع نطاق أعمال المرصد ورؤى أن تشمل أرصاده أرصادا خاصة بالمغناطيسية الأرضية — يجب أن تكون أجهزتها بعيدة عن المؤثرات الخارجية كخطوط المواصلات الحديدة — رؤى أن ينقل هذا المرصد إلى مكانه الحالى فى حلوان ، وتم ذلك سنة ١٩٠٣ .

وقد قام المرصد منذ ذلك التاريخ بعمل صور عديدة للأجرام السماوية والسدم والمذنبات والسيارات، ونشر رسائل علمية مختلفة ، وكانت أرصاده عن مذنب هالى سنة ١٩١٠ والكوكب السيار بلوتو سنة ١٩٣٠ فى المرتبة الأولى بين أرصاد المراصد الأخرى .

ونظرا لتأثر بعض أجهزة المرصد بكهرباء خط حلوان مما يجعل البيانات التى تعطيها غير دقيقة فقد أقيمت محطة أرصاد إضافية بالفيوم ومنظار جديد فى طريق القاهرة — السويس حتى يكون بعيدا عن كهرباء مدينة القاهرة وضواحيها .

٧ — إنشاء الجمعية الجغرافية المصرية : وفى سنة ١٨٧٥ أنشئت الجمعية الجغرافية المصرية لتحقيق غرضين :

١ — دراسة الجغرافيا فى جميع فروعها .

٢ — الكشف عن البلاد الإفريقية التى لا تزال مجهولة أو غير معروفة تماما .

وقد تولى رئاستها فى بداية عهدها المستكشف المشهور جورج شفينفورت ، ثم تولى الرئاسة بعده بعض الأعلام المصريين منهم أيوب باشا ومحمود الفلكى باشا .

وقد قامت هذه الجمعية بنشر عدد كبير من البحوث الجغرافية القيمة على صفحات مجلتها ، وأصدرت مجموعة طيبة من الكتب الجغرافية القيمة . واهتمت فى سنواتها الأولى بترقية دراسة الجغرافية فى المدارس المصرية ، وضربت مداليات خاصة كانت تقدمها إلى من يظهر نبوغا وتفوقا من طلبة المدارس ، كما طبعت عدة خرائط للحائط بالعربية .

ومن على منبر تلك الجمعية ألقى عدد من المستكشفين محاضرات عما قاموا به من دراسات ، ومن هؤلاء ستانلى وبورتون ، كما ألقى عدد من المصريين محاضرات أخرى ، وفيما يلى أسماء بعضهم وبعض ما ألقاه من محاضرات :

مختار باشا : هرر ، الصومال ، السودان ، السنة الهجرية .

محمود باشا الفلكى : حاجة مصر إلى مراصد ، استخدام أعالى النيل لزيادة الفيضان ، تقدم دراسة الجغرافية فى مصر .

أحمد زكى باشا : تخطيط العرب للفيوم فى القرن السابع للهجرة ، مستندات جغرافية إسلامية اكتشفت فى الآستانة .

محمد بك بيرم : القيروان .

أحمد كمال باشا : الجغرافيا عند قدماء المصريين .

محمود بك سالم : السائحون المسلمون .

٨ ـ كشوف أحمد محمد حسنين باشا : وفى أواخر سنة ١٩٢٢ قام أحمد محمد حسنين باشا برحلة اخترق فيها صحراء ليبيا من السلوم إلى حدود السودان وعاد إلى مصر فى صيف سنة ١٩٢٣ ، وقد استطاع بهذه الرحلة أن يصل إلى النتائج الجغرافية الآتية :

١ ـ حدد الموقع الحقيقى لآبار الظيعن وواحة الكفرة . وبذلك أعيد تصحيح خريطة القارة الأفريقية .

٢ ـ كشف واحتى أركنو والعوينات فى الركن الجنوبى الغربى من مصر ، وأمكنه تعيين موقعيهما وسعة مناطقهما بالتقريب .

٣ ـ كشف طريقا فى الجنوب الغربى من مصر ، يجتاز سهل أردى وأنيدى فى إفريقية الاستوائية الفرنسية إلى دارفور .

٤ ـ تمكن من تعيين مناسيب مضبوطة للبارومتر على طول الطريق .

وبذلك استطاع الحصول على معلومات قيمة عن طبيعة تكوين الجبال فى منطقة واسعة لم يعرف عنها شىء من قبل ، وأثبتت هذه المعلومات عدم احتمال وجود مخرج صرف لبحيرة تشاد فى اتجاه شرقى .

وقد ألف عن رحلته كتابا بالإنجليزية وكتابا آخر بالعربية عنوانه « فى صحراء ليبيا » .

رحلات محمد ثابت :

ومن اشتهروا بين المصريين بكثرة رحلاتهم المغفور له الأستاذ محمد ثابت إذ كان المصرى الوحيد — حتى اليوم — الذى تمكن من زيارة أغلب أركان المعمورة إذ طاف بكثير من الدول المعروفة فى جميع القارات لا طلبا للرياضة والنزهة كما يفعل الكثيرون بل حبا فى الدرس والاستطلاع ، وقد سجل مشاهداته فى عدة كتب صدرت باسم « جولات » .

كلمة ختامية

وبعد فهذه صفحات موجزة عن جهود العلماء العرب فى ميدان الجغرافيا وهى على إيجازها تقدم صورة صادقة لأهم ما قاموا به .

ولم تكن الجغرافيا هى الميدان الوحيد لنشاط العرب العلمى بل هناك ميادين أخرى عديدة ، تناولتها بعض كتب هذه السلسلة ، وستتناول بقية النواحى الأخرى وبهذا يتسنى لأحفاد العرب الأمجاد الوقوف على مواطن العزة والمجد فى تاريخ أجدادهم ، حتى يكون لهم من ذلك حافز لمواصلة الجهود لإعلاء شأن العروبة فى جميع الميادين وخاصة الميادين العلمية .

فهرست

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢

فبراير ١٩٦٢ الثمن ٣٠ مليماً

